فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ

آيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة



د. هاني درغام

دار البشير

فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ

آيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة

د. هاني درغام

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 4302 / 2023

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

***

إطلالة البداية

(لقد قرأت كثيراً في كتب الرقائق والإيمانيات والمواعظ، وجربت كثيراً من الوسائل التي ذكروها، وأصدقك القول: إنني رأيتها محدودة الجدوى، لا أنكر أن فيها فائدة، لكن ليست الفائدة الفعلية التي كنت أتوقعها، ووجدت العلاج الحقيقي الفعّال الناجع المذهل في دواء واحد فقط، دواء واحد لا غير، وكلما استعملته رأيت الشفاء في نفسي، وكلما ابتعدت عنه عادت لي أسقامي، هذا العلاج هو بكل اختصار *تدبر القرآن*.

دع عنك كل ما يذكره صيادلة الإيمان، ودع عنك كل عقاقير الرقائق التي يصفونها، واستعمل *تدبر القرآن* وسترى في نفسك وإيمانك وقوتك على الطاعات وتأبيك على المعاصي وراحة نفسك في صراعات المناهج والأفكار شيئاً لا ينقضي منه العجب)[1].

(الشيخ إبراهيم السكران)

***

1 الطريق إلى القرآن: ص ٤٥ - ٤٦.

وأشرقت شمس القرآن

(ألا ما أجمل *شمس القرآن* إذا أشرقت في قلب المؤمن، وخالجت أنفاس روحه، فالقلب يطير، والروح تحلّق، والنفس تسمو، وحُقَ لمثل هذا الشروق أن يُفرح به ويُستبشر: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس: ٥٨).

• حين تشرق الآيات في قلب المؤمن فإنها تشع على الجوارح خُلقاً وعملاً، فيكون قوله نوراً، وعمله نوراً، وحياته نوراً.

• حين تشرق الآيات في قلب المؤمن فإن الجوارح لا تبطش، والعقول لا تطيش، والنفس لا تجزع، لأنها آمنة مطمئنة في ظلال مواعظ القرآن، وشفاء الصدور.

• حين تشرق الآيات في قلب المؤمن فإنه لا يتعلق إلا بالله، ولا يخشى إلا الله، ولا يرجو إلا الله؛ لأن محياه ومماته لله رب العالمين، لا شريك له.

• حين تشرق الآيات في قلب المؤمن فإن روح العبد تسمو وترتفع في سلالم اليقين، ومعارج الإيمان، وتصبح تلك النفس المطمئنة الراضية المرضية)[2].

(الشيخ عبد اللطيف التويجري)

***

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدىً للناس وبيناتٍ من الهدى والفرقان، وجعله طريقاً إلى الجنان ونجاة من النيران وشفاءً للقلوب والأبدان، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد....

إن النفس البشرية إذا تُركت بلا تهذيب ولا تزكية؛ ضعفت مناعتها الإيمانية، ووهنت قواها الروحية، وأصبحت أكثر عرضة لغزوات الأهواء وهجمات الشيطان، وتسلط الباطل ونمو الرذيلة.

لذا، كانت الحاجة ماسّة إلى الانغماس في أنهار التزكية الربانية؛ لتتخلص النفوس من كدوراتها وشوائبها، وتتطهر من جنابة غفلاتها.

ولما كان القرآن العظيم هو المصدر الأساس في التزكية، كان لزاماً على المؤمن أن ينهل من معين هداياته، ويرتوي من فيوضات إشراقاته، ويغمر قلبه بأنوار عظاته، ويُجري سلوكه وفق مبادئه وتوجيهاته.

فالقرآن مائدة الله التي مدّها لعباده، وحديقته التي زيّنها بمختلف الفواكه والزهور والرياحين، وفتح أبوابها لكل طالب، ويسّر النفع بها لكل راغب، فمن دخل تلك الحديقة، وجلس إلى هذه المائدة لا بد أن ينال حظاً من طعامها وثمارها، أو يتنسّم من روحها وشذى طيبها: (فمن قصص يأخذ بمجامع القلوب، إلى أمثال بما فيها من تصوير رائع،

وبيان أخّاذ ساحر، إلى وصف وبيان الأحوال الآخرة، ينقل السامع إلى ما فيها من شقاء أو نعيم، كأنما هو يعاينه ويراه رأي عين، إلى مواعظ وحكم تُخاطب الوجدان وتُلهب الشعور، وتأخذ النفس البشرية في رفق وسهولة إلى ما يُسعدها ويُنجيها في دنياها وأُخراها؛ من التخلّق بالأخلاق الحميدة، والتمسك بأهداب الفضائل عن طواعية واقتناع، ومراقبة الله الذي يعلم السرّ وأخفى)[3].

ولك أن تتأمل في قول الله عز وجل:

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر: ٢٣).

(ذلِكَ هُدَى اللَّـهِ).. الذي يروي شجرة إيمانك؛ فتُورق أغصانها، وتورف ظلالها، وتطيب ثمارها.

(ذلِكَ هُدَى اللَّـهِ).. الذي من أجله أُلِّفت التفاسير، وكُتبت المصنّفات، وكثُرت المؤلفات، وجادت قرائح العلماء.

(ذلِكَ هُدَى اللَّـهِ).. فافتح نوافذ قلبك أمام أنواره، ودهاليز روحك أمام إشراقاته، وبوابات عقلك لتغشاك سطوة برهانه.

فما أحوجنا إلى أن تصبح آيات القرآن الكريم منارات هاديات تُوقظ الغافل، وتُنبّه الشارد، وتزجر العاصي، وتُواسي المظلوم، وتُسلّي المهموم، وتُحفّز المشتاق، وتهدي الضالّ، وتُعين أهل الحق على الصبر والثبات.

وإني لأجد أن من أعظم الغبن أن تعيش طيلة حياتك وأنت لم ترتوِ بعدُ من ينابيع القرآن!

وكل آية في كتاب الله إن لم تغرس في قلبك خشية، أو تصنع فضيلة، أو تحرّر فكرك من أغلال التبعية والتقليد، أو تنأى بنفسك عن التوافه والانشغال بما لا يفيد، أو تسمو بروحك عن شهوات الطين، أو تجعل همّك نصرة الدين، أو تدفعك للمسارعة إلى الخيرات والفرار من المنكرات؛ فما تدبرتَها حق تدبرها، وما أبصرت رسالتها، وما انتفعت بهداياتها، وما غمرتك أنوارها، وما ارتويت من نبع عطائها!

وهذا الكتاب جمعت فيه ١٠٠ وقفة مع آيات من كتاب الله عشت في ظلالها أبحث عن هداياتها وإشراقاتها، ولم أكثر من النقولات، ولم أعتمد على التفاسير بصورة مباشرة، فما أكثر الكتب التي اعتنت بالتقاط درر المفسرين وتجميع جواهر التفسير! وإنما أردت أن تكون تجربة خاصة بما تذوقته من حلاوة الآيات، وبما غمرني من جمال البركات، وسمو المواعظ والغايات.

ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر والتقدير للدكتورة سمر الأرناؤوط على مراجعتها للكتاب

وما قدمت من نصح وإرشاد وتصويب وتوجيه؛ فجزاها الله خير الجزاء.

أسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذا العمل المتواضع، وأن يجعله خالصاً لوجهه، وأن يجعله عوناً للقارىء على تدبر كتاب الله والتماس الشفاء بمواعظه، ومداواة الغفلة بقوارعه، ونيل الأنس في مناجاته.

***

2 مشارق الآي ١٢ - ١٣ بتصرف.

3 في رحاب القرآن: ص ١٩ – الشيخ عبد الغني عوض الراجحي.

محاسبة النفس من وحي

(سورة الفاتحة):

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ* ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

ويحكِ يا نفس..

· تقرئين (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).. فتشكرين الله عزّ وجل باللسان وتعصينه بالجوارح والأركان، والقلب يتقلّب بين الغفلة والنسيان.

· وتقرئين (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ).. فتجزعين في الشدائد والكربات، وتنسين أن يد الرحمة الإلهية لم تبتليكِ لتعذّبكِ، وإنما لتهذّبكِ وتخلّصكِ من كافّة العلل والأدران التي تعوق سيركِ وارتقاءكِ في مدارج العبودية.

· وتقرئين (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ).. فلا ترتعدين خوفاً من تقصيركِ في حق الملك عز وجل، وتفريطكِ في حقوق الآخرين التي ستحاسبين عليها يوم الدين!

· وتقرئين (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ).. فلا تجدين سعادتكِ وسكونكِ في تحقيق لذّة العبودية واللجوء إلى حصن التوكل ليقيكِ من آفات الطريق!

· وتقرئين (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ).. ثم تأخذين بكل أسباب الضلال، وترتعين في مراتع الهوى ومنعرجات الفسوق والعصيان!

· وتقرئين (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ).. فتسلكين سبيل أهل الضلال والإجرام، وتنحرفين عن مسار أهل الهداية والإنعام.

***

الافتقار إلى الهداية

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ* ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ (الفاتحة)

وسط حصار خانق من الشهوات والشبهات، وطوفان عارم من الملهيات والمنسيات، وسعي حثيث من شياطين الإنس والجن لتيسير دروب الإغواء والإضلال، يصبح افتقار العبد إلى هداية الله عز وجل لتثبيته على الصراط المستقيم ــ أسمى المطالب وأغلى الأمنيات..

وفي هذه الآيات عدة فوائد:

١-الهداية أجلّ نعمة تُسدى للعبد، وأعظم مكرمة تُمنح لهذا المخلوق، فهي خير ما يطلبه العبد من مولاه، وهي أسهل معبر إلى الأمن والسكينة والاطمئنان، وأيسر جسر إلى الرضوان والتوفيق.

٢-عَلِمَ الشيطان اللعين أهمية سلوك طريق الحق في نجاة العبد وسلامته؛ فنصب لك شباك الغفلة وفخاخ المعاصي ومنجنيق الهوى، فتوعّد وهدّد: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ١٦)، فانتبه له ولا تنخدع بمكائده.

٣-(اهْدِنَا).. افتقار إلى رحمة الله، وطلب الأمان والنجاة، واستمطار المعونة والتوفيق، لذا تكرّرها في اليوم في الصلوات ما لا يقل عن سبع عشرة مرة؛ ليتذوقها قلبك وتمتزج بها روحك.

٤- للصراط المستقيم محطات ومعالم ومنازل موصوفة في كتاب الله العظيم وسنّة النبي الكريم، فاحرص على تتبعها والالتزام بها، وتجنّب السُبُل المتفرّقة والطرق المتشعّبة.

٥-(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)..هذا الطريق سلكه قبلك الأنبياء والشهداء والصدّيقون والصالحون.. فالتمسْ سيرتهم من كتاب ربك، وسيرة نبيك (ص)، فقد خبروا دروبه، وتجاوزوا منعطفاته ومنحنياته، وجاهدوا الفتن والشبهات، واستعلوا على الشهوات والمغريات.

***

هُدًى لِلْمُتَّقِينَ

﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢).

* القرآن هدى يمزج الفكر بالعاطفة، ويزاوج بين الجسد والروح، ويصل الدنيا بالآخرة. هدى؛ بشرط أن تكون شغوفاً بالبحث عن مواطن الهداية فيه بفكر ثاقب وقلب يقظ وروح شفافة..ستكتشف جوانب الهدى عندما تقرأه بحثاً عن الحياة!

* فتش في لحظات وحشة القلب وضيق الصدر عن منسوب التقوى في قلبك، لأنه متى حلّت أنوار التقوى فيه اغترف من معين القرآن ما يداوي أدواءه وآفاته، ويحرّره من كافة همومه وأحزانه، ويدكّ جدار ظلمته بنور الهدى المبين.

* هل تدري لِمَ ينتفع المتقون - وحدهم - بكتاب ربهم وينالون بركاته وخيراته؟!

لأن التقوى تحرّرهم من براثن الشرك، وإدمان المعاصي، وجواذب الهوى، وقيود الغفلة، ولوثات الرياء، وكلها أقفال تحول بين القلب وبين التدبر والانتفاع!

***

وما أجمل ما قاله (الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله) في رياض هذه الآية المباركة:

التقوى هي الأتون الذي يُصهَر فيه القلب، ووَقُوده الخوف والخشية، فيخرج وقد تطهَّر من صدَأ القَسْوة وخَبائِث الجفوة، ونَقائص الأطماع، والحظوظ الشهوانيَّة والشهوات الشيطانيَّة التي كلها تتراكَمُ عليه إذا حُرِمَ ذلك الوقود فانطَفَأ ذلك الأتون، وتلك التقوى هي التي تُقوِّم من خُلُقِ المؤمن وتُهذِّبُ من نفسه وتُزكِّيه وتُطهِّره من كلِّ خلُق خبيثٍ وطبْع ذميم.

***

تفقد قلبك

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (البقرة: ١٠).

دعوة إلى أن يفتش كل واحد منا بداخل قلبه عن شهوة مستحكِمة، أو شبهة فاسدة، أو معصية منسيّة، أو غفلة مزمنة؛ تعوق سيره إلى الله ، وتمنعه موارد الهدى والرشاد.

ولعلك تسألني: ما هي العلامات التي تشخّص بها حالة قلبك إذا اعتلّ أو مرض؟

أقول لك: إذا لاحت له بوارق الشهوات جدّ وركض، وإذا جاءت الطاعة أقبل عليها في فتور وعلى مضض، وإذا أصابه ما يكره من الأقدار جزع واعترض، وإذا ما فرّج عنه كربته عاد إلى الغفلة ونسي العهد ونقض.

وعندما تستولي على القلب العللُ والآفاتُ وحبُ الدنيا والشهواتُ تنتكس الفطرة، وتختل الموازين؛ فيصبح الفساد إصلاحاً، والقبيح حسناً، والمعروف منكراً.

واقرأ إن شئت قوله تعالى في الآية التالية: ﴿ وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ولكِنْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة: ١١-١٢).

فيا لشقاء من أهمل إصلاح قلبه سنين طوال، وتركه عرضةً لغزو الشهوات وهجوم الغفلات، ثم يشكو من اختلال الموازين، وضياع القيم، وعدم القدرة على التمييز بين الحق والباطل، واستحسان القبيح، وإنكار المعروف!

***

الخروج من الجنة

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ* فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة).

١- (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ...) دأب الشيطان وعادته أن ينقلك دوماً من حالة الرُقيّ الإيماني إلى مستنقع الفتور والغفلة؛ فيُخرِجك من حالة الرضا إلى السخط، ومن الطمأنينة إلى القلق والاضطراب، ومن الأنس إلى الوحشة، ومن سمو الروح ونداوتها إلى انحطاطها وجفافها، ومن سعة الصدر وانشراحه إلى ضيقه وهمّه، وله في ذلك مداخل كثيرة ومتنوعة.

٢- (وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) عندما ينسى المرء أن حياته على الأرض محدودة وموقوتة؛ يطغى ويظلم، يبغي ويفجُر، يستكبر ويستعلي، يخاصم ويجادل، يحارب الحق ويتنكّر للفضيلة من أجل لعاعات الدنيا وزينتها.

• إياك أن تنسى أنك مخلوق أخروي يعيش بجسده على الأرض، وروحه وأشواقه تحلّق في السماء، ينتظر بشغف أن يعود- بعد موته- إلى موطنه الأصلي، كما قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: (نحن نسل من نسل الجنة، سبانا إبليس منها بالمعصية، وحقيقٌ على المسبيّ أن لا يهنأ بعيشه حتى يرجع إلى وطنه).

٣- (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (البقرة ٣٧) ولا تزال نسمات الأمل تلامس قلبي- كلما استزلّه الشيطان في مستنقع الخطيئة- لتخبره أن الفرصة سانحة للاجتباء بعد الجفاء، وللصعود والارتقاء رغم كثرة الأخطاء، فما أسعد العبد بهدية ربه يفتح له أبواب التوبة والمغفرة؛ ليغتسل من أدرانه، ويتطهر من غفلاته، ويثأر من شيطانه، ويبيّض صحائفه.

***

اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣).

الصبر طاقة إيجابية تمنع المؤمن من الانهيار تحت وطأة الشدائد والضغوط، والصلاة تحافظ على توهج هذه الطاقة بما تفيضه على الروح من أنس وسكينة وراحة بال.

قلت لنفسي يوماً: أو تدري ما قمة البؤس؟

ألّا تجدي في محراب الصلاة بلسماً شافياً لأوجاعك أو علاجاً كافياً لهمومك وأحزانك! وأن يخدعك الشيطان بالبحث عن مسكن لألمك عبر لذة عاجلة أو شهوة وقتية؛ قد تتوهمين فيها تخفيف حدة معاناتك، ولكنها تزيد من كآبة الروح وضيق الصدر.

قال بكر المزني رحمه الله: (من مثلك يا ابن آدم، خُلِّي بينك وبين المحراب، كلما شئت دخلت على الله عز وجل ليس بينك وبينه ترجمان)

فهل وعي ابن أدم هذه المنّة؟ هل أقبل على صلاته بشوق وحنين، وتضرّع في دعائه وخشع في سؤاله.

يا ليتنا ندرك قيمة الوفود على ملك الملوك في أي وقت دون واسطة أو حجاب!

يا لها من نعمة لو عرفها الملوك لحاربونا عليها بالسيوف.. بل وبالطائرات والصواريخ!

***

إِنَّـا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٥-١٥٧).

(إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ)...

تأملت في هذه الكلمات؛ فوجدتها بلسماً للمكروبين، وشفاءً للمهمومين، ومصلًا ضد الجزع، وترياقًا ضد الحزن المهلك.

إن أوقات الشدائد والضرّاء من أكثر الأوقات التي تنشط فيها وساوس الشيطان لتغريك بالهلع، وتدفعك للجزع، وتقودك إلى السخط والشكوى؛ (إذ أضعف ما يكون الإنسان في النوازل التي تصيبه على اختلاف أنواعها، والضعيف يحتاج لسند يستند إليه وقوة تنفث في روحه الثبات وقدرة التحمل ومواجهة كل ما يمر به من مصائب تترى تارة في النفس وأخرى في الأهل أو الأحبة، فأية مصيبة تصاب بها لا بد من مصدر قوة تستمد قوتك منه فلا تقهرك الخطوب، ولا تعوقك العثرات والجراح، بل تمضي بقلب جسور ونفس راسخة)[4].

ولو تأملنا هذه الكلمات العظيمة لوجدنا فيها عدة فوائد:

• (إِنَّا لِلّهِ).. إقرار بالعبودية، واعتراف بالملكية، وهل العبودية الحقة إلا في كمال الإنقياد والإذعان لله تعالى في كل أمور حياتك؟! وهل تتجلى حلاوة التسليم إلا في أوقات الكرب والبلاء؟ وهل تتذوق لذّة الافتقار إلا في أشد لحظات ضعفك وعجزك؟!

• (وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ).. ولحظة رجوعك إلى الله- لو نجحت في اختبار العبودية- تشبه رجوع المسافر إلى وطنه وأحبابه بعد طول غياب واشتياق، فقل لي بربك كيف تكون حلاوة الرجوع؟ وأي مشقة تبقى وقد أيقن القلب بأن الرحلة مهما طالت فهو على موعد مع أجمل لقاء.. لقاء الملك عز وجل ليكافئه على صبره على تتابع المحن ومشقة الطريق، (أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)، فما أكمل هذا الجزاء، وما أمتع هذا الثواب، وما أتم تلك المكافأة!

***

4 سيرين الصعيدي – مقال *إنا لله وإنا إليه راجعون.. قوة وعزاء*

فَإِنِّي قَرِيبٌ

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦).

إذا أحاطت بك الهموم والأحزان، وضاقت عليك الدنيا، فتذكر أنه عز وجل قريب.

فانطرح على بابه وتذلّل على أعتابه، واشكُ له من كثرة الذنوب واستحواذ الشيطان، وطغيان الشهوات، وتسلّط الباطل، وغلبة الهوى.

إنّ قربه سبحانه منك يغريك بالوصل بعد الهجران، ويولّد الحياء من طول البعد والجفاء!

وإجابته دعاءك تحفزك على تحطيم جدران اليأس، والتوجه إليه بقلب يحمل نبتة الأمل طمعاً في تثبيت غراسها وجني ثمراتها.

فيا له من بائس مَنْ إذا قُضيت حاجته وزالت شدّته وظفر بأمنيته، انقطع عن الافتقار والدعاء، وفترت همّته عن الخشوع والرجاء، وعاد إلى غفلته متوهِّما الأمن والاستغناء!

ويبقى (استعجال) إجابة الدعاء هو الثغرة الواسعة التي ينفذ منها الشيطان إلى قلبك؛ فيهتز يقينك، وتضعف ثقتك بربك، وتُغلق نوافذ الأمل، ويشتد الظلام، ويسود اليأس، وينقطع الرجاء، وكلنا جرّب ذلك، وتبقى قوة نور اليقين هي طوق النجاة للخروج من زنزانة المحنة بسلام حتى يأذن الله في الفرج واليُسر.

***

هل تذوقت حلاوة الاستسلام ؟

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦).

من أشد اللحظات على العبد أوقات المنع والضراء، فحرمان العبد مما يشتهي أو تأجيل ما يحب يثير بداخله – إلا من رحم الله – عاصفة من الظنون والشكوك، والحيرة والاضطراب، ويتساءل عن الحكمة من ذلك.

لذا هذه الآية شفاء لما في الصدور وبلسم لجروح الروح التي يخلّفها هذا الحرمان، وردّ الأمور كلها لحكمة الحكيم سبحانه الذي يربّي عبده بما ينفعه ويصلحه..

وفي الآية عدة فوائد:

١-دعوة إلى الاستسلام لله في كل أمور الحياة - وخاصة فيما يكره الإنسان، فالمؤمن يتعامل مع رب ودود رحيم، حكيم عليم يعلم ما يصلح الإنسان وما يفسده: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤)، فماذا يضير الإنسان لو استسلم؟!

٢-احرص على التأمل في قصص القرآن ومواقف السيرة النبوية التي تجسدت خلالها هذه الآية بصورة عملية فهي أكبر عون لك على فهم هذه الآية وتذوق حلاوتها ومن ثم تطبيقها، ومنها على سبيل المثال: قصة ولادة موسى عليه السلام وإلقائه في اليم ثم وصوله إلى قصر فرعون، وكذلك موقف موسى عليه السلام مع العبد الصالح في سورة الكهف، وكيف استنكر عليه قيامه بثلاث أمور ظاهرها شرّ واضح ولكن في طيّاتها خير عميم، وقصة يوسف عليه السلام مع إخوته وما مرّ به من محن وابتلاءات وشدائد كانت سبباً في نقله من ضيق الجُبّ إلى سعة المُلك.

٣-(وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ).. اصرخ بها في وجه شيطانك عندما يغريك بالجزع والسخط، ويزين لك اليأس والقنوط، ويغرس في قلبك الحزن والوهن.. وأنّى يكون علم المخلوق كعلم الخالق، وعلم الناقص كعلم الكامل، وعلم القاصر كعلم اللطيف الخبير!.

٤-وعندما أعود إلى دفتر صفحات حياتي أقلّب أوراقه، أتذكر كم من المكروهات كان من ورائها الخير العميم والنفع العظيم! وكم من المحبوبات التي كانت تلهث وراءها النفس خلّفت هموماً وأحزان!.. كم نحبس أنفسنا في سجن اللحظة الحاضرة ونظن أن فوات هذه المنفعة أو تلك اللذة هي القاصمة بالنسبة لنا، وننسى أن رحمة الله تتجلى في المنع كما تتجلى في العطاء لا فرق. يا لها من آية لو تدبرها القلب لأزالت عنه كل الوساوس والظنون، ثم ألا يكفي القلب المكلوم: (وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)؟!

***

في محراب العظمة (آية الكرسي)

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

· كلما تكاتفت عليّ سحب الهموم، وأحاطت بي الأحزان والغموم، وغلبتني الوساوس والظنون.. تأملت في آية الكرسي؛ فوقع بصري على قوله تعالى: (الْحَيُّ الْقَيُّومُ)؛ فأحسست بها تهزّ قلبي، وتزلزل كياني، وتحطم أحزاني، وكأنها تخاطبني: ربك عز وجل يتولى إمدادك ورعايتك، ويتولى حفظك ونصرتك، ويمسح آلامك ومتاعبك، فعلامَ الهمُّ والقلق؟

· كلما هممتُ بمعصية، أو غلبتني شهوة، أو غرّتني نفسي الأمارة بالسوء؛ فأوقعتني في شباك الهوى.. طالعتُ قول ربي: (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ)؛ فاضطرب فؤادي، وارتجفت أوصالي.

ويحكِ يا نفس.. أتدرين من يراقبك؟ من يطّلع على ظاهركِ وباطنكِ؟ إنه الله عز وجل: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر: ١٩).

· كلما ضعفت في مواجهة الشدائد والأزمات، وكدت أنهار أمام الخطوب والملمّات؛ فضاقت عليّ السُبُل، وبارت الحِيَل، وتقطّعت الحبال، وضاق الحال؛ إذ بآية الكرسي توقظني من غفلتي وكأنها تعاتبني: هل نسيت الملك عز وجل الذي (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)؟ أما علمت أن الملك سبحانه:﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن ٢٩)، فهلّا رفعت إليه شكواك؟! هلّا قصدت باب مولاك؟!

· كلما ردّد لساني قوله تعالى: (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)؛ سارع قلبي وجوارحي إلى السجود لله عز وجل..

ألا ما أروع السجود لعظمته! فهو أقصى درجات العبودية، وأجلُّ مظاهر التذلّل، وأصدق دلائل الإذعان، وأعذب مناظر الخشوع، وأفضل أثواب الافتقار.

***

فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

إنّ النفس البشرية إذا اعتادت كثرة النعم وتتابع الرخاء وطول العافية أحسّت بشعور وهمي بالاستغناء عن خالقها وموجدها، واستخدمت نعمه في التطاول والاستعلاء، والبغي والفجور، فهذا الملك الطاغية الذي ظنّ أن ملكه وقوته وحشوده وجنوده قادرة على منحه اختصاصات الألوهية فقال في تبجح وغرور: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ)،

وفي الآية عدة فوائد:

١- (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ).. واعجباه.. مخلوق من ماء مهين ونطفة ضئيلة يخاصم ويجادل وينازع ويكابر! تلك آفة كل الطواغيت في كل مكان وزمان، ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (يس٧٧).

٢- (فِي رَبِّهِ).. ربه الذي تولاه بالعناية والرعاية، وأغدق عليه النعم والعطايا، وصرف عنه النقم والبلايا..

أما يستحي أحدنا أن يواجه هذا الإحسان بالغفلة والجحود والنكران؟!

٣- (أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ).. وما أكثر الذين قادهم الملك الواسع والجاه العريض والثراء الفاحش إلى التمرد والاستكبار!

عجيب أن تكون النعمة وسيلة للعلو والطغيان بدلا من الخضوع والإيمان، وما نموذج فرعون منك ببعيد! ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى﴾ (سورة العلق).

٤- (إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ).. فكيف يتوجه العباد إلى غيره طمعاً في كشف ضر أو جلب نفع؟! ألا إنه الضلال المبين والعمى الواضح!

٥- (قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ).. مغالطة سخيفة، ومكابرة عقيمة، وجهل فاضح، وفهم سقيم، وتأويل مردود يستتر وراءه الطاغية ليخفي عجزه وضعفه، ويعلّل رفضه لدعوة الحق.

٦- (قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ).. هكذا يقف الباطل ضعيفاً هشّاً مدحوراً أمام سلطان الحق المبين، فهو دوماً يفشل في ميدان المناظرة والجدال، لذا يلجأ للقوة والبطش ليخفي عجزه وفشله.

***

احذر وعود الشيطان

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٨).

لما علم الشيطان الخبيث خوف الإنسان من الفقر والحاجة وقلة ذات اليد، وحرصه على الغنى والوفرة، سعى في مكر ودهاء ليزيّن له البخل والشح، ويدعوه- من أجل ذلك - لارتكاب شتّى الفواحش والمنكرات، وقد خدع آدمَ عليه السلام بالملك والخلود فانكشف خداعه، لكنه لا يفتر عن خداع ذريته!

وفي الآية عدة فوائد:

١- (يَعِدُكُمُ).. وعود براقة خادعة لا تنطلي إلا على الغافلين، ولا ينخدع بها أهل الإيمان الذين أخبرهم ربهم في كتابه عن تبرؤ الشيطان من أتباعه يوم القيامة: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (إبراهيم: ٢٢).

٢- (ويَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ).. يدعوك إلى ما فيه هلاكك وفسادك في الدنيا والآخرة، ويأمرك بما يغضب مولاك ويسخطه، ثم تستجيب له في طواعية واختيار، فبئس الصفقة الخاسرة!

٣- (وَاللَّـهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا).. قال الحسن البصري متعجباً من حال أكثر الناس: (قرأتُ في تسعين موضعًا من القرآن: أنَّ الله قدَّرَ الأرزاقَ وضمنها لخلقِه، وقرأتُ في موضعٍ واحد: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٨)، فشككنا في قول الصَّادق في تسعين موضعًا، وصدَّقنا قولَ الكاذب في موضعٍ واحد)

٤- (وَاللَّـهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ).. سعة في الفضل والرزق، والرحمة والعفو، وسائر النعم الظاهرة والخفية، فاسأل الله تعالى وأنت موقن بالإجابة، فهو لا يرد سائلاً سأله، ولا يخيّب رجاء من ارتجاه.

***

الشهوات اختبار واستثمار

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران: ١٤).

إن إدراك العبد لحقيقة أن الشهوات هي المادة الامتحانية التي شاء الله أن يبتلي بها عباده- وما يترتب على ذلك الامتحان من مسئولية وجزاء - هو الذي يصونه عن الإغترار بها والركون إليها، حتى يكون أهلاً للدخول في رضوان الله والفوز بجنته...

وفي الآية عدة فوائد:

١- لما نسينا أن الشهوات وسيلة للارتقاء في مدارج العبودية للوصول إلى مرتبة(أحسن عملا)، انكبّ أكثر الناس على تحصيلها بدون ضوابط، وبذلوا في سبيل الإكثار منها الغالي والنفيس حتى أضحوا أُسارى في زنزانتها، فهوت أنفسهم في مستنقع الحرص والشح وطول الأمل.

٢- (ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا).. كل ما على الأرض من شهوات ومغريات، وملذات ومبهجات؛ لها صلاحية محددة تنتهي بانتهاء حياة المرء على الأرض – هذا على فرض أنه لن يحرم منها في حياته – مع ما يصاحبها من منغِّصات ومكدِّرات، ومع ذلك غرق الكثير في أمواجها حتى أنستهم الخلود الحقيقي والنعيم الباقي.

٣- ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: ١٥).

ابحث عن التقوى في كتاب ربك تجدها مرتبطة دائماً بالفوز والفلاح، والأمن والنجاة، والسعادة والبركة، فتزيّن بلباس التقوى ليحميك من نيران الشهوات والشبهات.

***

وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩).

لحظات الهزيمة والإخفاق دوماً مؤلمة، تحتاج إلى من يربط على قلبك، ويهدّىء من روعك، ويجبر كسرك، ويخفف أحزانك، ويداوي أوجاعك؛ وهل مثل الإيمان الصادق يفعل هذه الأعاجيب؟!..

وفي الآية عدة فوائد:

١- صدق الإيمان بالله يفجّر في الإنسان الطاقات الكامنة، فيغدو قادراً على قهر العجز وهزيمة المستحيل، وتحويل اليأس إلى أمل، والفشل إلى نجاح، فاغرس شجرة الإيمان في قلبك وتعهدها بالرعاية والسقاية.

٢- لا تضعف في معركة الحياة، ولا يتسرب إليك الوهن أو تطوقك جيوش الحزن؛ فالأيام دول، والدنيا لا تستقر على حال، فاجعل إيمانك هو البوصلة التي تهديك في أوقات الانكسارات.

٣- لا تنظر إلى مرارة الألم، ولكن انظر إلى حلاوة الأمل وجوهر الخير الذي يحمله لك.

٤- أنت الأعلى بصدق إيمانك وقوة صلتك بربك! فلا تخَف مكائد الشيطان، ولا تبتئس بكيد الباطل، ولا تنخدع بإملاء الظالمين.

***

ثمن الجنة

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٢).

إنّ للجنة ثمناً يجب أن يُؤدى وعطاءً يجب أن يُبذل، ومشقات تُقابل بالصبر، وتضحيات تتطلب الجهاد، وشهوات تُقاوم بالمجاهدة، ونفس أمّارة تُهذّب بالترويض والتزكية، وشيطان لحوح يحتاج إلى يقظة وانتباه ولجوء إلى حمى الملك عز وجل؛ فالطريق محفوف بالمكاره والمشاق، ولكن حلاوة العاقبة تهوّن مصاعب الطريق، *ألا إن سلعةَ اللهِ غاليةٌ ألا إن سلعةَ اللهِ الجنةُ* (جزء من حديث نبوي رواه الترمذي ٢٤٥٠).

***

سباق إلى الجنان

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣).

• (وَسارِعُوا).. كم مرة سمعتها فتكاسلت وأعرضت، ولشهواتك استسلمت، ولغفلتك اطمأننت؟!

انتبه! بقدر مسارعتك اليوم إلى الطاعات، تسبق غداً في دخول الجنات.

• (وَسارِعُوا).. العمر قصير لا يحتمل التقصير؛ فاقطع حبال الأمل الكاذب، واذبح الكسل بسكين العمل.

• (مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ).. مغفرة تُبدِّد سيئاتك، وتُجدِّد إيمانك، وتُغيظ شيطانك، وتُنعش آمالك.

وما يضرّك ما خسرت في دنياك إذا ربحت في الآخرة مغفرة مولاك، وما قيمة الحياة الدنيا بأكملها إذا قيست بغمسة واحدة في الجنة!

• (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ).. خير الزاد - في الدنيا - الذي يوصلك إلى برّ الأمان في الآخرة هو التقوى، كلمة قليلة في ألفاظها، عظيمة في معانيها وآثارها، تشعّ أنوارها على القلب لتحرّره من كافة القيود والسلاسل.

• بكى أحد الصالحين لما قرأ الآية السابقة فقيل له: لقد أبكتك آية ما مثلها يُبكي، إنها جنة عريضة واسعة، فقال: (يا ابن أخي.. وما ينفعني عرضها إن لم يكن لي فيها موضع قدم).

•(والناس في المسارعة على أقسام: فالعابدون يسارعون بقدمهم في الطاعات، والعارفون يسارعون بهممهم في القُرُبات، والعاصون يسارعون بندمهم بتجرّع الحسرات، فمن سارع بقدمه وجد مثوبته، ومن سارع بهمّته وجد قربته، ومن سارع بندمه وجد رحمته) (5).

فيا قلبي العليل..

متى تستنشق أريج الجنة بعدما زكمت أنفك كثرة المعاصي والزلل؟!

متى تسارع إلى مرضاة مولاك وتتغلب على العجز والكسل؟

أما قرع سمعك: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ﴾ (يونس ٢٥)، فلا تغترّ بفسحة المُهَل وبادِر قبل هجوم الأجل.

***

5 لطائف الإشارات ج١/٢٨٩ – الإمام القشيري.

كأس الموت

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

من أصدق الكلمات التي أتذكرها دائماً عند موت أحد المعارف أو الأقارب ــ مقولة (الحسنُ البصري) رحمه الله: (فضح الموتُ الدنيا، فلم يتركْ فيها لذي لبٍّ فرحًا)[6].

قلت: فضح الموت الدنيا؛ لأنه نزع قشرتها البرّاقة، وكشف بهرجها الخادع، وسرابها الزائف، وشهواتها الفانية، وزينتها الزائلة، وقطع حبال طول الأمل الكاذبة.

وكيف يفرح بالدنيا - كما قال أحد الحكماء - مَنْ يومه يهدِم شهره، وشهره يهدِم سنته، وسنته تهدِم عمره؟ كيف يفرح من يقوده عمره إلى أجله، وحياته إلى موته؟

وإن زيارة واحدة للقبور تنبئك عن حقيقة الحياة الدنيا التي تخدع أكثر أهلها عبر شباك التزيين الشيطاني الذي يحجب بصر القلب عن معاينة الحقائق الواضحة، ويضعف صوت العقل عن الاستماع للتحذيرات القاطعة.

أخي الحبيب..

إن كثرة موت الفجأة من حولك..

- تهدم أسوار الغفلة والإغترار.
- تذكرك بأهمية استدراك ما فات وتصحيح المسار.
- تدعوك إلى الولوج لحصن التوبة والاستغفار.
- تنبّهك إلى أن الآخرة هي دار القرار، وأن زينة الدنيا مصيرها الزوال والاندثار.

وعند الموت ستكتشف أن كل ما كان يشغل بالك ويستحوذ على تفكيرك - دون الباقيات الصالحات- هو جهد ضائع وسراب خادع!

***

6 التهذيب الموضوعي لحلية الأولياء، ص: ٨٧٠ – الشيخ محمد عبد الله الهبدان.

ضعفك سر قوتك

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٨).

كثيراً ما ينظر الإنسان إلى نفسه، فيرى أنه مبعث القوة إن سار وتحرك، أو مبعث الدراية والفهم إن علم وتعلّم، أو مبعث الملك والغنى إن شبع وتنعّم، أو مبعث الغلبة والقهر إن قدر وتحكم، ولكن تتحطم كل هذه الأوهام في أوقات الفاقة والاضطرار، فيعود المرء إلى أصله عاجزاً، ضعيفاً، فقيراً، جاهلاً، ذليلاً، لا غنى له عن ربه ومولاه طرفة عين وإلا ضاع وهلك!

وفي الآية عدة فوائد:

١- عَلم ربك سبحانه أن سرّ قوتك وعزتك في تذللك وافتقارك؛ فخلقك مجبولاً على الضعف ليسهل عليك الارتقاء في منازل العبودية ومدارج الإيمان!

٢- من أكثر الأوقات التي أدرك فيها مدى ضعفي وفقري:عند التهاب الشهوات، واشتداد الكربات، وفوات المحبوبات، وتأخر المشتهيات.

٣- ضعيف حتى لو امتلك القصور الفارهة أو الكنوز الطائلة أو السلطان العريض أو الملك الواسع أو القوة الباطشة أو العلم الغزير! يكفي أنه لا يستطيع تحمل الألم إذا أصابه أصغر الفيروسات أو لدغته أضعف الحشرات أو مسّته أهون المكروهات!

٤- ضعيف! فما باله يطغى ويستكبر، ويظلم ويفجر، ويجادل ويخاصم! فبئس من استبدل لباس الافتقار بثياب الاستكبار!

وما أجمل ما كتبه *د. بندر الشراري* وهو يحدثك عن جوانب من هذا الضعف: (وضعفه ليس في بُنْيَتِه فحَسْب، بل حتى في مشاعره، وتصوّراته، واختياراته، ورغبات:

- بُنْيته، قد تفتك بها خثرة (جلطة) في عرق..
- ومشاعره، قد تضّطرب لموقف..
- وتصوّراته، قد تنتكس لشبهة..
- واختياراته، قد تنحرف لشهوة..
- ورغباته، قد يحول دونها فيروس)

***

لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:١٠٠).

حين يفتقد الناس الميزان الحق في تقييم الأمور وتمييز الغَثّ من السمين؛ فإنهم يتخبطون في متاهات الحيرة والضلال، وينخدعون بالموازين المضطربة المزخرفة التي تجرّ عليهم الشرور والفساد والفتن.

وفي هذه الآية عدة فوائد:

١- (لَّا يَسْتَوِي).. قاعدة قرآنية هامة في التمييز بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشد والغيّ، والصواب والخطأ، والتقوى والفجور، فلا تستوي الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا المال الحرام بالمال الحلال، وقليل من يدرك ذلك!

٢- (لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ).. لا تغتر بكثرة الخبيث مهما انتفش وانتفخ، أو رجحت كفّته على كفّة الطيب، ولا تؤَثر في نفسك كثرته وسطوته؛ فإنه مهما كثر وظهر وفشا، فإنه سيء العاقبة، سريع الزوال، لذّته تعقبها الحسرة، وشهوته تتلوها الندامة، وسطوته تصحبها الخسارة والكراهية: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ (إبراهيم: ٢٦).

٣- (وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ).. فإنما ينخدع بالكثرة من لا يرون من الأشياء إلا ظاهرها، ولا يعلمون من الأمور إلا قشورها، كما قال المخدوعون من قوم موسى عندما رأوا قارون في زينته وأبهته: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (القصص: ٧٩).

٤- (فَاتَّقُوا اللَّـهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).. وما يتمسك بتقوى الله إلا أصحاب العقول الراجحة السليمة التي تجد في التقوى نورًا يضيء لها مسالك ودروب الحياة.

***

حياة النور

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١٢٢).

يا لها من لحظات مشرقة حين يُولد الإيمان في القلب من جديد؛ فتشرق أنواره على الجوارح؛ ليتذوق نفحات القرب والأنس بالرحمن بعد طول وحشة وعصيان.

شتان شتان بين النور والظلام.. بين الهدى والضلال.. فهنيئاً لمن أدرك تلك اللحظات، فهجر مستنقع الغفلات إلى واحة الإيمان حيث حلول الخيرات والبركات.

وفي هذه الآية عدة فوائد:

١- (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا).. ليس الموت السريري أو البيولوجي، ولكنه الموت الروحي والوجداني الذي يميز الإنسان عن سائر المخلوقات، وهو موت لا يشعر به أكثر الناس السادرين في غفلاتهم، وهذا ما دعا وهب بن منبه- رحمه الله- لتحذير الغافلين بتقرير هذه الحقيقة المؤلمة: (واعجبا من الناس!! يبكون على من مات جسده ولا يبكون على من مات قلبه وهو أشد)[7].

٢- (فَأَحْيَيْنَاهُ).. إنها ولادة جديدة للعبد تتبدل فيها تصوراته وأفكاره، ومشاعره وأحاسيسه، وقيمه وأخلاقياته، وسلوكياته وأفعاله؛ فيصبح رضا الله غايته، ولذة الحياة في طاعته، وجمال العيش في القرب منه، فأيُّكم جرّب ذلك؟

٣- (وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ).. إنّه نور الإيمان يغمر القلب والعقل والجوارح، فيبعث الحياة الخيرة الكريمة في كيان الإنسان، فهو يعيش حياته في رؤية واضحة، يدرك بها حكمة الله ورحمته بخلقه، وسنته في هذا الكون، وقضاءه النافذ، وقدرته البالغة، فتطمئن بذلك نفسه، وتصفو سريرته.

٤- (كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا).. ظلمات الهوى والغفلة، ظلمات القلق والحيرة والاضطراب، ظلمات الارتكاس في حمأة الإباحية الضالة والمادية المظلمة، ظلمات بعضها فوق بعض، ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (النور ٤٠).

***

7 تنبيه المغترين ص ٦٦- الإمام الشعراني.

حجب الغفلة

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (سورة الأنعام).

ما أرحم الله عز وجل بعباده! حتى وأنت منغمس في مستنقع العصيان، لا يتركك سبحانه وحيداً تنهشك عقارب الغفلة، بل يرسل لك سهام الشدة والبلاء لعلّها تنبّه القلب الشارد ليحسّ بلذعة المعصية؛ فيقوده الألم إلى محراب التوبة والندم حيث يتطهّر فيه القلب من جنابة غفلاته!

وفي الآية عدة فوائد:

١- (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ).. تأتي الشدائد والكربات لإنعاش القلب الغارق في ظلمات الغفلات والشهوات، فلا تنزعج عند حلول الابتلاء؛ فإنما هو تطهير وارتقاء.

٢- (تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً).. أروع ما في المحن أنها تعيد للمرء هوية عبوديته لله عزّ وجل والتي فقدها بفعل مؤثرات الشهوات ونوازع الأهواء.

٣- (لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ).. متى استيقظت فطرة الشكر في قلب الإنسان، تحركت النفس في شوق ولهفة نحو حصن التوبة؛ لتتخلص من ذنوب ومعاصٍ حجبت القلب طويلاً عن معرفة المُنعم عز وجل، فاحذر من العصيان بعد الإحسان، ونسيان الإلتزام بعد الإنعام!

وخلاصة القول: (على عتبات الألم أبصرتُ شلالات الإخلاص وينابيع الافتقار، وعبر سياط الشِدّة تهاوت حجب الغفلة وتحطّمت أصنام العُجب والاغترار!)

***

خواتيم السوء والحرمان

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٥٠).

لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفى بها زاجرةً للظالمين وأهل الباطل وأرباب الهوى، فهي تعرض مشهدًا عجيبًا من حسرتهم وندمهم، حتى أنهم يتوسلون إلى أهل الحق أن يفيضوا عليهم من الماء البارد لعِظم ما يقاسونه من حرارة جهنم وشدة عذابها.

أهل الحق الذين كثيراً ما سخروا من دعوتهم، وتنكّروا لقيمهم، وحاربوا أتباعهم، وتطاولوا عليهم بالبطش والطغيان! الآن يستغيثون بهم، ويستجدون شفقتهم ورأفتهم، فما أبأس حالهم، ويا لطول حسرتهم!

وقد أعجبني قول أحد المفسرين وهو يصف حالهم المزري:

(إن أولئك الذين لا يدّخرون في الدنيا شيئاً من الخيرات لآخرتهم، في يوم القيامة سوف يمدّون يد التسوّل والحاجة للجميع).

وإنني وأنا أتأمل هذه الحالة البائسة لهؤلاء المجرمين، أجدني أقول:

يا ويح الطغاة والظالمين! أين ما جمعتم في الحياة الدنيا من مال ومتاع؟!

أين الملك والسلطان؟! أين الحشود والجنود ؟! أين قوتكم الزائفة؟! أين جبروتكم الفارغ؟! أين الشركاء الوهميين والأنداد المزيفين؟! هل لكم من شفعاء تدعونهم؟.. هل من وسيلة تتوسلون بها إلى الخلاص من هذا البلاء الشديد؟

إنه لا شيء هنا إلا الوحشة المطبقة، والحسرة القاتلة، والخسران المبين: ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٤).

***

جريمة الطهارة!

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الأعراف).

• (مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ).. إذا رأيت أكثر الناس يتسابقون إلى الفاحشة، ويسارعون إلى المنكر، ويسكرون من خمر الإباحية، فعليك بالسباق إلى الطاعة، والفرار من الفتن، والمسارعة إلى الفضائل.

• (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ).. من أعظم مداخل الشيطان لإضلال العباد التزيين؛ تزيين المنكر، وتجميل القبيح، وتحسين الفواحش، ولا يزال كثير من الناس صرعى هذا التزيين ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ٣٠).

• (أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ).. حينما ينتشر الفساد في المجتمع وتنمو الرذيلة، يعمل الفاسدون على عزل المتطهّرين، ويصبح النهي عن المنكر والحثّ على الطهارة جريمة يعاقب عليها القانون، لذا يجب على أهل الحق الثبات على التقوى والتمسك بالفضيلة مهما حاول أهل الباطل صرفهم عن ذلك بشتى الوسائل.

***

الانسلاخ من لباس التقوى

قال الله عز وجل: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٥).

إن النفس التي تفقد موارد تزكيتها وتتعرى من لباس التقوى، تصبح في مرمى ضربات الشيطان، يستحوذ عليها ويقودها كيفما يشاء إلى مراتع الغرور والاستكبار، وحين ينأى الإنسان عن نبع الإيمان العذب الغزير، يفترسه القلق والاضطراب، ويشده متاعُ الجسد إلى التراب، فلا يرغّبه ثواب، ولا يرهّبه عقاب.

وهذه صورة أحد هؤلاء الذي (مال إلى تُرابيته المظلمة بعد أن انسلخ من روحانيته، التي لو لزِمَها لحلّقت به في سماء الرحمة والرضوان، لكنه بإعراضه وصدوده عن الحق - حبس نفسه في سجن المادة، فأصبح عبداً لشهواته وملذاته؛ فهجمت عليه آفات الهوى فسلختْه من إنسانيته، وجرّدته من كل ما فضّله الله به على سائر الحيوان؛ فأضحى كأخسّ نوع من أنواعها، وهو الكلب في أقبح أوصافه وأسوأ أحواله: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون الا كذباً ﴾[8].

وما أجمل ما قاله (د. فؤاد البنا) تعقيباً على هذه الآية:

(تُعد آيات الله الدرع الحصين للإنسان، وبالتسلّح بها لا يمكن للشيطان أن يتسلل إليه، لكنه عند الانسلاخ منها تنفتح أبوابُه المغلقة للشيطان، فيدخل دخول الظافرين، حتى ينجح نجاحاً عظيماً في إغواء الإنسان مهما كان علمه؛ وكأن الانسلاخ عن آيات الله هو انسلاكٌ حتمي في ركب الشيطان!).

***

8 الأمثال القرآنية دراسة تحليلية- ص:١١٧- د. محمد بكر إسماعيل.

حصن التقوى

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

إن المؤمن قد يقترف المعصية ويرتكب الخطيئة، ولكنه - بحسب قوة مناعته الإيمانية- يأوي سريعاً إلى كهف التقوى يستمد منه النور الذي يواجه به ظلمات المعصية، فيعود إلى كنف ربه نادماً تائباً، معلناً توبته وإنابته، وندمه وأسفه، وانتصاره على شيطانه..

وفي الآية عدة فوائد:

١-الطيف الشيطاني أمر عارض وسحابة صيف عابرة عند المتقين الذي يهتمون بصيانة قلوبهم بين الحين والآخر.

٢-كلما كان رصيد المؤمن من التقوى عظيماً، كان أثر الشيطان فيه ضعيفاً؛ لأن التقوى هي الحصن الذي يحتمى فيه المؤمن من أن يطوف الشيطان به، وكلما كان هذا الحصن متين الأركان، متماسك البنيان؛ ضاقت منافذ الشيطان وسُدّت دون كيده الأبواب!

٣- (تَذَكَّرُوا).. (تَذَكَّرُوا عقاب الله وغضبه، أو ثواب الله وإنعامه، أو مراقبته والحياء منه، أو مننه وإحسانه، أو طرده وإبعاده، أو حجبه وإهماله، أو عداوة الشيطان وإغواءه، كلّ على قدر مقامه)[9].

تذكّروا توعّده: *لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ* (الأعراف١٦)، وتذكروا تحذير الله منه: *لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ* (الأعراف ٢٧).

٤- (فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ).. (قد يغلق مسّ الشيطان بصيرة الإنسان عن كل خير، ولكنّ التقوى هي التي تفتح هذه البصيرة، وتجعله دائماً يقظاً متذكراً لما أمره الله به أو نهاه عنه، فينتصر بذلك على وساوس الشيطان وهمزاته، وتبقى لهم بصيرتهم على أحسن ما تكون صفاءً ونقاءً وكشفاً)[10].

***

9 البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج ٢/٢٨٩- ابن عجيبة.

10 التفسير الوسيط ج ٥/٤٦٠– الشيخ محمد سيد طنطاوي.

المحرومون من فهم الرسائل الربانية

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٦).

إن آفة المتكبرين أنهم لا يتدبرون رسائل الله عز وجل إليهم في السرّاء والضرّاء، وفي المنع والعطاء، فتتسلل آفات القلوب - وما أكثرها - إليهم تاركةً في القلب جراحات تلتهم ما تبقّى من الفطرة السوية؛ فيفقد القلب إحساسه بألم البُعد عن مولاه، ويُحرم من نعمة الهدى، ويفقد القدرة على التمييز بين الرُشْد والغَيّ.

إنه أمر مرعب حقاً أن يقود (الجحود والعناد) المتكبرين إلى استمراء سبيل (الغَيّ والضلال) رغم وعورة مسالكه، وفداحة الضريبة التي يدفعونها في الدنيا حيرةً وتخبطاً، وفي الآخرة تعاسةً وحرماناً!

ولقد عرض لنا القرآن صورة واضحة لهؤلاء الذين لا يفهمون رسائل الله تعالى في المنع والعطاء، في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٥).

فالغافلون يرون في التقلّب بين الضرّ والسعة، والخصب والجدب، تحولات تسير عليها دورات الكون، ولا دخل للاستقامة ولا اتباع الشهوات في تلكم التحولات، لذا لا يدفعهم الضر والشدة إلى محراب الخشوع، ولا تقودهم النعمة والرخاء إلى مقام الشكر!

لذا كان من أقصر طرق السعادة أن يرزقك الله بصيرة إيمانية تدرك طرفاً من حكمة القدر ولطفه في المنع والعطاء، وتحسن قراءة رسائل الله عز وجل في السراء والضراء؛ فلا تجزع في لحظات المنع، ولا تيأس عند حلول الشدائد، ولا يهزّك طول المحن والابتلاءات؛ ففي كلٍّ من الابتلاء بالخير والشر عطاء!

عطاءٌ لا تدركه إلا القلوب العارفة بربها، والتي أشرقت أنوار أسمائه الحسنى عليها فمنحتها الرضا والأنس والثقة والسكينة.

***

المؤمنون حقاً

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال: ٢).

في هذه الآية عدة فوائد:

١- (إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ).. وجلت القلوب لأنها عرفت ربها بكماله وجلاله، وعظمته وسلطانه، واغترفت من معين أسمائه وصفاته ما يجعلها تسجد في محراب الخشية: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٠).

فما أروع القلوب العامرة بالإيمان عندما تمتلىء بتعظيم الله وإجلاله، فتجمع بين الإحسان والخوف، لأن أنوار الإيمان أزالت كل حجب الغفلة والعُجب والغرور، فمنحت القلب يقظة تنبّهه إلى مفسدات الأعمال، وتُشعره بثقل المسئولية وعِظَم التبعة، والحذر من عدم القبول، أما الغافل فلا يحس بلذعة الخوف، ويغره الرجاء الكاذب، ويلهيه الأمل الخادع عن الاستعداد قبل انتهاء الرحلة وإعلان الوصول.

٢- (وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً).. وخشعت النفوس عند تلاوة الآيات لأنها شهدت ملكاً عظيماً يدبر شئون الكون بحكمة ولطف، ورحمة وعناية تغرس في القلب اليقين، وتطرد وساوس وهواجس الشيطان اللعين.

٣- (وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).. وتوكلت عليه سبحانه لأنه يملك وحده العطاء والمنع، النفع والضر، الخلق والرزق، وهو أعلم بما يصلح عبده وينفعه.

طوبى لمن جمع هذه الصفات الثلاث؛ فقد تذوق حلاوة الإيمان، وأصبح عبداً ربّانياً يسلم أمره كله لمن بيده الأمر كلّه، وهذا هو الإيمان الحقيقي، ودون ذلك صور وأشكال لا علاقة لها بالحقيقة.

***

التقوى جماع الخير كله

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنفال: ٢٩).

يحتاج الإنسان في رحلته على الأرض إلى ما يمنحه القدرة على التمييز الدقيق بين الخير والشر، والحق والباطل، كما يحتاج إلى ما يكشف له منحنيات الطريق ودروبه، وهذا هو دور التقوى.

ففي تقوى الله نور يهتدي به الإنسان إلى مواطن الحق والخير؛ حيث يبدو له وجه الحق واضحاً وضيئاً، يدعوه إليه ويغريه بالإقبال عليه، على حين يرى وجه الباطل كاسفاً كئيباً، فيعرض عنه ويفرّ منه..

وفي الآية عدة فوائد:

١- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا).. مقتضى عقد الإيمان أن تقول *سمعنا وأطعنا* لكل ما يأمرك به مولاك أو ينهاك عنه؛ فالإيمان هو القوة المحرِّكة للاستجابة للتعاليم الإلهية، ورفض كل صور التمرد والعصيان.

٢- (إِن تَتَّقُوا اللَّـهَ).. من أجمل تعريفات التقوى التي قرأتها: (خشية المؤمن ربه عن علم - أي: بكمال الله وجلاله وعظمته، وبحدوده ومحارمه وحلاله وحرامه-، ومداومته على طاعته بأداء الواجبات والقُرُبات، واجتناب كل المنهيات، راجياً ثواب الله والنجاة من عقابه).

٣- (يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا).. مخرج من الأزمات والمُضِلّات، ونجاة من الضياع في حمأة الفتن وما يعقبها من طامّات ومهلكات، وفيصل بين الحق والباطل ينير سبيلهم.

٤- (وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ).. مغفرة تزيح عنك ركام السيئات، وتمحُ ماضٍ مثقل بالخطيئات، وتخرجك من ورطة الغفلات.

فأيُّ منحة تلك التي نتلقاها من الله عز وجل إذا التزمنا خط التقوى!

***

وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال: ٣٠).

(وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)..

ويتكرر صدق هذه الآية عبر الزمان والمكان..

هل نجح إخوة يوسف -عليه السلام- في كيدهم ومكرهم للتخلص منه كما خدعهم الشيطان؟

هل نجح الطاغية فرعون في تأمين ملكه عندما قرر أن يتخلص من المواليد الذكور لبني إسرائيل؟

هل نجح المشركون في إطفاء نور الحق- رغم كل ما مارسوه من تعذيب واضطهاد وبطش وتنكيل بأصحاب الحق والرسالة؟

أين هؤلاء البشر الضعاف المهازيل من تلك القدرة القادرة.. قدرة الله الجبار، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره، وهو بكل شيء محيط؟ ولكنها سكرة الطغيان تعمي المجرمين عن هذه الحقيقة، وتُصَوّر لهم أن الإمهال ملازم الإهمال، وأنهم بمنأى عن العقاب والهلاك: ﴿فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ* فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٤٤ - ٤٥).

***

إِلَّا تَنْصُرُوهُ

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٤٠).

إن الله إذا أراد نفاذ أمر فلن تقف دونه قوة في هذا الوجود، وأنه سبحانه قد أراد إعزاز دينه، وإظهاره على الدين كلّه، والمجاهدون الذين يجاهدون في سبيل الله ما هم إلا أدوات عاملة في مجال تلك الإرادة التي أرادها الله، لِيُكتب لهم عند الله الأجر العظيم، والمثوبة والرضوان.

وفي الآية عدة فوائد:

١- (إِلَّا تَنصُرُوهُ).. فليسأل كل واحد منا نفسه عن دوره في نصرة الحق، والدعوة إلى الإيمان، والدفاع عن نبي الإسلام (ص) خاصة في ظل الهجمة الشرسة على الإسلام تارة بالتطاول على الدين، وتارة بالاستهزاء بشعائره، وتارة بالتشكيك في ثوابته.

٢- (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّـهَ مَعَنَا).. وتتبدد الأحزان والمخاوف على صخرة المعية الإلهية، فكفى بعزته تعالى التي لا تُغلب، وقدرته التي لا تُقهر، وولايته الدائمة التي لا تنقطع؛ بلسماً للهموم وترياقاً للأحزان.

٣- (فَأَنزَلَ اللَّـهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ).. إنها الطمأنينة الربانية التي تحلّ بالقلب؛ فيجد الإنسان المكروب ريح الأمن، وبرد السلامة والعافية، وهي أعظم بركات الإيمان وأشهى ثمراته!

٤- (وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا).. المستقبل لهذا الدين مهما كاد له المُغرِضون أو حاربوه المُبطِلون، حقيقة يقينية مطلقة تدفعك إلى مزيد من الجهاد والعمل، والصبر والمصابرة، وتدفع عنك وساوس الشيطان وأراجيف المنافقين.

***

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس).

هذه صورة قرآنية بليغة للحياة الدنيا في ألوانها وزخارفها التي تغري الناس بها وتفتنهم فيها بما نزل من السماء فخالط نبات الأرض وأنبت فيها من كل صنف وزوج بهيج، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، واستوفت زينتها من زهور بديعة، وأغصان شامخة، وثمار يانعة، فإذا هي حصيد تذروه الرياح..

وفي الآية عدة فوائد:

١- (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا).. وكم خدع زخرفُها ذو البريق المغري الخادع - الكثيرَ من الناس حتى اغتروا بزينتها، وانشغلوا بتحصيل مغرياتها؛ فأنستهم الآخرة حتى غدت الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم وغاية مناهم.

٢- (وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا).. غرور القوة وجنون الامتلاك يدفع الغافل إلى اعتقاده بأنه المهيمن على هذه الأرض والقادر وحده على تعميرها وتدميرها، وهذا مُشَاهد في الأمم المتغطرسة التي أصابها إعصار الاستكبار، فطغت وبغت وكفرت وتجبّرت، وهي أضعف من أن تواجه فيروسًا ضعيفًا!

٣- (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ).. سلام في أجسادنا، فلا أمراض ولا إعاقات ولا إصابات ولا كسور ولا جروح.. سلام في أرواحنا ، فلا قلق ولا كآبة ولا إحباط ولا ملل، ولا يأس ولا انكسار ولا حزن.. فهلّا اشتقتَ إلى هذا النعيم! هلّا شمرتَ واجتهدتَ لنيل هذا التكريم!

ولا تحسبن أن النوايا الحسنة وحدها كافية لدخول الجنان! لا بد من إيمان راسخ، وسعي جاد، وهمة متوقدة، وعمل متواصل، وصبر دؤوب، وحسن توكل؛ فالسلعة غالية تستحق البذل والعطاء والمجاهدة: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء: ١٩).

***

ما أقصر الحياة الدنيا!

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (يونس: ٤٥).

١- (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ).. تزوّد من الباقيات الصالحات ما يضمن لك الأمان والفلاح في هذا اليوم العصيب، فالعملة المتداولة في هذا اليوم هي الحسنات والسيئات.

٢- (كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ)..ما أشد قصر الحياة الدنيا وسرعة زوالها غير أن الشيطان يزيّنها لك ويمدّ في حبال الأمل وينسج شباك الغفلة.

٣- (يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ).. أسوأ تعارف في التاريخ! تصحبه اللعنات والسباب والتبرؤ والتوبيخ واللوم والافتضاح: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٦٧).

٤- (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ).. يا لها من صفقة خاسرة وتجارة بائرة! وماذا يبقى للمرء إذا خسر نفسه وأوردها موارد التهلكة في الآخرة: ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الزمر: ١٥).

٥- (وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)..الآن أدركت قيمة طلب الهداية في اليوم سبع عشرة مرة على الأقل في صلاتي؛ فالعقبات كثيرة، والأعداء بالمرصاد.

٦- وإني كلما تأملت في قوله تعالى: (لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ)؛ عقدت العزم على أمرين:

الأول: أن أجاهد نفسي في عدم الانشغال بالشهوات والملهيات، وأن أسعى إلى الحفاظ على الأوقات واغتنامها في طلب الخيرات وحصد الحسنات، فما أشأم حظي إن ضيعت حياتي القصيرة في التوافه والغفلات، والقيل والقال.

الثاني: ألا أقع فريسةً للهموم والأحزان، وألا أضيع وقتي في التشاحن والتباغض وخلق عداوات مع الناس، وأتذكر دائماً الحكمة الرائعة: (الحياة قصيرة فلا تقصّرها بالهمّوم).

***

وعندها تستيقظ الفطرة

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (يونس ١٢).

في داخل كل إنسان إشراقة نورانية - وهي الفطرة السليمة - غير أنه قد يخفتُ ضوؤها بفعل غواشي الغفلة وأستار الغرور وحجب الشهوات؛ فتأتي الشدائد والنكبات لتزيل كل الأغطية وتعيد للفطرة بريقها ولمعانها؛ فتبصر في التوحيد الخالص ملاذها الركين وحصنها الحصين.

وفي الآية عدة فوائد:

١-ما أشد ضعف الإنسان! مجرد مس الضر ينزع عنه ثوب الاستكبار، فيرتدي لباس الذل والافتقار، ويعود إلى فطرته التي حجبتها أدخنة الشهوات في أوقات الرخاء والاستقرار.

٢- ضعفك سر قوتك، وإحساسك الوهمي بالقوة والاستغناء يقودك حتماً إلى الجحود والطغيان.

٣- (مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ).. سرعة تحول عجيبة من الافتقار إلى الاستكبار تخبرك أن الإنسان بغير تزكية مستمرة تنهشه عقارب الغفلة والنسيان.

٤- (كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ).. التزيين يقلب الحقائق، ويزيّف الواقع، ويجمّل الباطل، ويحسّن القبيح، وهو أحد أهم أسلحة الشيطان في اصطياد ضحاياه.

أواه يا قلب..

ما أشد جحودك لأفضال الله عليك وإحسانه إليك! إذا مسك الشر تضرعت إلى مولاك في خشوع وانكسار.. ثم إذا كشف الله عز وجل ما بك من ضر عدت إلى العصيان والاستكبار!

ويحك.. أتظن أنك بمأمن من قبضة الملك الجبار؟! لو علمت ضعفك وفقرك لما توقفت لحظة عن مد يد الذل والافتقار، ولكنها الغفلة والإغترار.

واحسرتاه.. إذا تذكرت مولاك في أوقات الشدائد والضراء، ونسيته في لحظات الرخاء والاستقرار!

***

إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ (هود: ١١٤).

كما أن للحسنات قدرة على محو السيئات من صحائف الذنوب، كذلك لها قدرة على محوها من صفحة القلب التي أظلمت وقست من كثرة الذنوب، فنور الطاعات يُبدد ظلمات المعاصي، وحلاوة العبادة تذهب بوحشة الغفلة.

فإذا كانت المعصية تقذف في القلب نار القلق والحرمان، فإن الطاعة تسكب فيه برد السكينة والاطمئنان، فإذا أوقعك الشيطان في فخ العصيان، فبادر بطاعة تعيد إلى قلبك حيوية الإيمان، وتنتشلك من جحيم الهوان والخسران، وهل مثل الصلاة ينقيك من دنس الذنوب ويطهرك من جنابة الغفلات!
وأوصيك بوصية الشيخ محمد الأسطل:

(إياك أن تنهزم أمام الذنب وإن تكرر، بل ادحره بتتابع التوبة وتكاثف الحسنات حتى تحتفظ بنفسيتك من التردي؛ لئلا يبطّئك الذنب على الانسحاب من أعمال البر أو التكاسل فيها، وكلما عاودتك مشاعر الحزن فادفعها بقول النبي(ص): *وأتبع السيئة الحسنة تمحها...* (رواه الترمذي: ١٩٨٧).

إنّه دواء نبوي ناجع يداوي آفات القلب، ويمنع جفاف الروح، ويعيد للنفس صفاءها ونقاءها.

***

الحسد الأعمى

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (سورة يوسف).

إن من شأن الهوى الجامح والحسد الأعمى أن يُزيّن لصاحبه المنكر، ويسهّل عليه المعصية، ويُنسيه ما يترتب على جرمه من مخاطر ومهالك لا يمكنه إدراك أبعادها وخطورتها.

فهؤلاء إخوة يوسف حاولوا إطفاء نار الحسد والغيرة التي تغلغلت في جنباتهم بالتفكير في قتل يوسف والتخلص منه دون النظر إلى أنه هو الأخ الصغير البريء في طفولته.

وما أجمل تعقيب الشيخ عبد الله العواضي على هذه الآية:

(الحسد إذا تمكّن من قلب صاحبه فهو سيل هادر لا يُبقي أمامه براً لأبوّة، ولا محبة لأخوّة، ولا خلقاً كريماً، ولا حدوداً شرعية، فهو طوفان يجرف، ورعود تقصف، ورياح تعصف وتنسف، ونار تتوهج، وظلمات تتكاثف وتمتد أمام العقول والعيون!)[11].

لذا كان الخوف من الله تعالى عن علم ومعرفة بمقامه، وليس عن جهل وتقليد - هو الحائط المنيع الذي يحجز طوفان الهوى ويحمي من شرور النفس الأمارة بالسوء، ويدحر وساوس الشيطان، ويفتح للمرء أبواب الجنان في الأخرة: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى * فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا *فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى * يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوضُحَاهَا ﴾ (سورة النازعات).

وهذا الخوف هو الذي دفع أحد ابني آدم إلى عدم رد عدوان أخيه عليه فقال: ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة: ٢٨).

***

11 أنوار من الذكر الحكيم، ص: ٥٣.

استعلاء الإيمان

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة يوسف: ٢٣).

ثلاث كلمات، بل ثلاث صواعق كالجبال ألقاها يوسف عليه السلام بكل ثقة وهدوء وثبات أمام هذا الإغراء الفاتن، والشهوة الجامحة، والرغبة المستعرة، والزينة الطاغية، والدعوة السافرة.

وفي الآية عدة فوائد:

١- (وَرَاوَدَتْهُ).. لن تمر حياتك بلا اختبار!، سيراودك المال والجاه، والشهوات والشبهات، وعلى قدر إخلاصك يكون المدد الرباني والتثبيت الإلهي.

٢- (وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ).. (لما غلّقت عليه أبواب المسكن فتح الله عليه باب العصمة، فلم يضرّه ما أُغلق بعد إكرامه بما فُتح)[12].

٣- (هَيْتَ لَكَ).. تجدها اليوم في المرأة السافرة، والشاشة الهابطة، والكلمة السافلة، والمجلّة الخليعة، والأغنية الماجنة، وجليس السوء، وداعية الزور، والإعلام المضلل.

٤- (مَعَاذَ اللَّـهِ).. وعندما تعلو أصوات الباطل وتزمجر: (هَيْتَ لَكَ)، تبقى صرخة: (مَعَاذَ اللهِ) هي الحصن المكين والملاذ الآمن يعصم المؤمن من لوثات الباطل وشروره ومفاسده.

٥- (إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ).. تَذَكُر سوابق النعمة والإحسان يبعد المؤمن عن الخيانة والجحود والعصيان.

***

12 لطائف الإشارات، ج ٣ /١٧٧-الإمام القشيري.

لا تيأس من رحمة الله

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧).

• (فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ).. الرجاء في رحمة الله وحسن الظن به يبعث على العمل والجد، في مقابل اليأس الذي يقتل الهمة، ويبرد العزيمة، ويشل الإرادة، ويقعد عن العمل.

• (وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّـهِ).. إن التعرض لنفحات الرحمة الإلهية - خاصة في أوقات الكرب والضيق- يغرسُ فسائلَ الأمل في قلبك، فترى من نافذة البلاء شعاع الرجاء يملأ روحك، ويقتل جراثيم القنوط والإحباط.

• (إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّـهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ).. بَددْ ظلمات اليأس بأنوار الإيمان عبر المواظبة على فعل الطاعات والبعد عن السيئات، فإن اليأس ملازم لأهل الكفر، ولا قدرة له على هزيمة الإيمان الصادق متى استقر في سويداء القلب.

وتأمل التطبيق العملي لحسن الظن بالله عند يعقوب عليه السلام عندما تحركت القافلة من مصر: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ (يوسف: ٩٤).

وما أجمل تعقيب د. فؤاد البنا على هذه الآية:

(إن الأمل طاقة ضخمة تستطيع أن تُخلّص الإنسان من شلل الإرادة، وتقدر أن تزيح أحجار الإحباط من طريق العمل والدأب.

إن القائد الذي يُشيع مشاعر التفاؤل ويزرع فسائل الأمل ويفتح أبواب الرجاء، هو الذي يستطيع أن يصنع من *كفن اليأس* القاتل *قميص يوسف* الذي يُخلّص الأعين من عمى الرؤية ويشفي الأيدي من شلل الإرادة)[13].

***

13 منهج الرشد القيادي في قصص القرآن، ص:١٣١-١٣٢.

روعة اللطف الإلهي

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٥٦).

ما أعجب تصاريف الأقدار! وما أروع لطف الله عز وجل بعباده الصالحين!

انظر إلى لطفه سبحانه بنبيه (يوسف عليه السلام)، تتعاقب عليه الشدة والرخاء، واليسر والعسر ؛غيابة جب ثم دهاليز قصر، وغياهب سجن، ثم مقاليد حكم.

ما بين (شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ) وبين (مَكَّنَّا لِيُوسُف) إعلان هيمنة الأقدار الإلهية، ونفاذ قانون: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٥)؛ فالذي بِيعَ بالأمس كعَبد بأبخس الأثمان، أصبحَ اليوم يَسكن قَصراً ستَحكي قصّته الأزمان.

حقاً.. من درى حكمة الله عز وجل في تصريف الأمور وجريان الأقدار، لن يجد اليأسُ إلى قلبه سبيلا.

وإني كلما مررت بشدة أو ضائقة، فأحاطت بي الهموم والأحزان، وملأت صدري الوساوس والظنون؛ هرعت إلى كتاب ربي أتدبر (سورة يوسف) أتلمّس فيها برد اليقين ونفحات السكينة ولذة الصبر الجميل، وأغترف من معين أسماء الله الحسنى (اللطيف - العليم - الحكيم) ما يداوي آلام القلب وجراحاته.

فما أروع المعية الإلهية والرحمة الربانية تغمر الملهوف الذي أُغلقت أمامه كل الأبواب؛ فيتجه إلى باب الملك عز وجل فيحيطه برعايته وعنايته ويغمره لطفه ورحمته، فتزيل عنه وحشته، وتنير له كل ظلمة، وتُذهب عنه كل حزن، وتفرج عنه كل كرب، وتُيسر له كل عسر، وتمسح عنه كل دمعة، وتنزع عنه كل أسى وألم، وتأخذ بيده في كل أمر.

***

إلى الله المشتكى

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٨٦).

تشكو همومك وأحزانك لمن يعلم بآلامك ويقدّر أوجاعك، ويحوطك بلطفه ويؤنسك بقربه، ويطمئِنُكَ بحكمته ويسعدك بولايته، ويفيض عليك من خزائنه ويغمرك بإحسانه، فهل بقي من الحزن شيء على فوات مرغوب أو فقد محبوب؟!

(هذا هو منهج العارفين بربهم؛ فإنهم لا يشكون الله للمخلوق، ولا يسألون أحداً سواه في كشف الضر، وجلب النفع، *فهو سبحانه* يُضّرع إليه في الكروب، وتُبسط له الأيدي في الملمات، وتتجه الوجوه إليه في الشدائد.
إن اللجوء إلى الله والهتاف به، والشكوى إليه والتوجع له - هو من دلائل الإيمان به، والثقة فيه، وإظهار العبودية له والافتقار إليه)[14].

***

14 من لطائف البيان في سورة يوسف، ص ٢٢٥ - د. محمد بكر إسماعيل.

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (الرعد: ١٧).

اقتضت سنة الله تعالى أن يقع الصراع بين الحق والباطل، ويُثير في الحياة غباراً ودخاناً يعكّر من صفو الحياة، إذ كان من شأن الباطل دائماً أن يتحكك بالحق وأن يعترض سبيله، لذا كان على الحق أن يعمل على الخلاص منه حتى يصفرّ وجهه، ويتمكّن الناس من الانتفاع به، تماماً كما ينتفعون بالماء بعد أن يدور دورته ويخلص من الزبد الذي علق به.

وفي الآية عدة فوائد:

١- الحق وإن بدا أنه خسر المعركة في بعض جولاته مع الباطل، فإن هذا لا يعنى أنه هُزم، وأسلم يده للباطل وأهله، وإنما ينهزم الحق حين تنهزم مبادئه في نفس أهله، وتخف موازينه عندهم.. فليطمئن حملة الحق ولا يستسلموا لليأس إذا شمخ الباطل بأنفه أو ارتفع برأسه.

٢- (لا يزال القلب يكره الشبهات والشهوات ويجاهدها بالبراهين الصادقة، والإرادات الجازمة، حتى تذهب وتضمحل، ويبقى القلب خالصاً صافياً ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره، والرغبة فيه)[15].

٣- والخلاصة البليغة من هذا المثل الرائع: (لا ثبات للباطل - مهما علا وانتفخ - مع وجود الحق، كما أنه لا ثبات للزبد مع الماء الصافي، ولا مع المعادن النقية).

٤- استنبط د. جمال عبد الستار من هذه الآية قانوناً رائعاً سماه قانون الأودية، وملخص ما قاله: (أن يتحول الفرد في نفسه إلى واد من أودية الخير التي تجري في الأرض بتقدير الله ورعايته، فيشق عباب البحر حاملًا الحق الذي يؤمن به، دافعًا أمامه الزبد والركام، منطلقًا وفق طاقاته وحمولته المناسبة، وإمكاناته المتاحة، وقانون الأودية يتمثل في أن تنحت لنفسك واديًا في تخصصك، فتنهض به، وتجتهد فيه، وتجعله محراب عباداتك، تصنع واديًا يفتح لمن بعدك آفاقا للإكمال، ويكتب لك امتداد الأجر بعد الرحيل فإن قلَّتْ آمادك اتسعت أمدادك).

***

15 تفسير السعدي، ج٤/٨٢٨.

طمأنينة القلوب

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد٢٨).

واعجباه! كيف تغفل القلوب المكلومة والحزينة عن هذا الدواء الناجع والمجرّب الذي تجد فيه السكينة بعد القلق والحيرة، والأنس بعد الوحشة، والأمل بعد اليأس، واليقين بعد الريبة، والسعادة بعد الحزن!

إنه ذكر الله عز وجل بمعناه الواسع الشامل.. ذكر صاحب الجلال والكمال والعظمة والسلطان، ذكر من يهيمن على هذا الكون هيمنة مطلقة ومشيئة نافذة، ذكر من يقول للشيء كن فيكون، ذكر من يطمع المرء في رحمته، ويعتصم بجلاله، ويحتّمى بحماه، ويلوذ بفضله من هموم الدنيا، ومن ظلم الظالمين وبغى الباغين.. فهل جربتَ هذا الدواء؟!

والقلوب المؤمنة تطمئن بهذا الذكر لأنها تذوقت حلاوة معرفة الله، وأيقنت أن الكون يدبر شئونه ملك رحيم، حكيم، لطيف، سميع عليم، فمهما تتابعت المحن وترادفت الشدائد، فهي في رعاية وعناية الحي القيوم.

وفي مقابل ذلك تطمئن القلوب الغافلة إلى زينة الدنيا الفانية، وتسكن كلما اغترفت من شهواتها وملذاتها، وجمعت من أموالها وثرواتها: ﴿ورضوا بالجياة الدنيا واطمأنوا بها﴾ (سورة يونس).

وشتان شتان بين طمأنينة وهمية توشك أن تغادر صاحبها في أي وقت، وطمأنينة دائمة تصحب صاحبها في كل وقت!

***

وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (إبراهيم ٢٢).

ما أشد حماقة الإنسان حين يختار سبيل الضلال، ويرمي بنفسه- طواعيةً - في أحضان الشيطان؛ يزين له الباطل، ويمد له حبال الأمل الكاذب والرجاء الخادع، حتى إذا جاء يوم القيامة أعلن الشيطان تبرؤه منه وألقى باللوم والمسئولية عليه..

العجيب أن يرى هذا الإنسان البائس الصورة الكاملة لما سيكون عليه حال الشيطان ومن والاه – وهو ما زال في حياته الدنيا في مرحلة الاختبار- قبل معاينة الأهوال يوم القيامة ثم يُصرّ مستكبراً، يستبد به الطغيان وتخدعه وساوس الشيطان، حتى إذا عاين الصورة يوم القيامة صاح مستغيثاً: ﴿ حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحًا فِيما تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون ٩٩-١٠٠).

هيهات هيهات.. فات وقت الندم، ولم يتبقَ إلا الحسرة والألم!

وبقدر ما تحمل هذه الآيات للظالمين (الأتباع والمتبوعين) من خزي وندامة، وحسرة وألم، وذلة وهوان؛ فهي تحمل البشرى والعزاء والسلوان للمؤمنين المستضعفين وهم يرون عبر هذه الصورة القرآنية البديعة ما ينتظر هؤلاء المجرمين من عذاب مقيم وجحيم رهيب، فلا مهرب، ولا نجاة ولا خلاص: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الحج ٢٢).

فما أجدر بالعاقل أن يبادر بعداوة الشيطان والتبرؤ منه في الدنيا، وعقْد الصلح مع الله قبل أن تضيع الفرصة وينفد الوقت!

***

علاج ضيق الصدر

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (سورة الحجر).

يجب على المسلم عدم الاستسلام لمشاعر الضيق والهم الناشئة عن المواقف السلبية للناس من دعوته سواء أهل الباطل الذين يواجهون دعوة الحق بسيل من السخرية والاستهزاء والتشكيك والاتهامات، أو السُذَّج من الناس الذين تخدعهم الشبهات المثارة ويرددونها دون تبصر أو تفكير.

وفي الآية عدة فوائد:

١- (وَلَقَدْ نَعْلَمُ).. علمك باطلاع ربك وإحاطته بكل ما تواجه من أكاذيب واتهامات يمنحك الثقة والهدوء والاتزان النفسي، فالملك عز وجل يعلم بكل ما يدور داخلك من مشاعر وانفعالات.

٢- (يَضِيقُ صَدْرُكَ).. ضيق الصدر يستنزف الطاقة، ويستهلك الجهد، ويبعثر العزيمة؛ لذا كان انشراح الصدر أعظم مطالب المؤمن لمواجهة كيد المبطلين ومكر المجرمين: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ (سورة طه).

٣- (يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ).. وكم من كلمات سيئة وأقوال سلبية وأكاذيب مفتراه كانت سبباً في جراح القلب وأذى النفس؛ فانتبه لكلماتك وراجع أقوالك!

٤- (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ).. (تسبيح الله وتنزيهه عما لا يليق يذهب بكل ضيق، وإثبات الكمال لله يرفع من همتك ومعنوياتك؛ لأنك تعلم أنك بعين الله وتحت رعايته)[16].

٥- (وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ).. السجود لله رسالة موجزة فحواها: العظمة لله.. القوة لله.. الاستعلاء لله.. العبودية لله، فهو انحناء لعظمته، وارتماء على أعتابه، واستسلام لجلاله.

***

16 تفسير سورة الحجر، دراسة تحليلية وموضوعية، ص: ٤٣٩- د. أحمد نوفل.

بين الخوف والرجاء

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ (سورة الحجر).

بين رجاء في رحمة الله يحفظ العبد من السقوط في مستنقع القنوط واليأس، وخوف يحرسه من اقتراف الفواحش وإتيان الموبقات؛ يعيش العبد في توازن نفسي وسلام روحي يمنحه السكينة والطمأنينة في طريق العبودية المحفوف بالمصاعب والتحديات.

وإني لأتأمل في قصص القرآن بحثاً عن صور من رجاء رحمة الله تعالى تحميني من السقوط في شرك اليأس عند اشتداد الكربات، كما في دعاء زكريا عليه السلام الخاشع طلباً للولد، أو دعاء أصحاب الكهف وهم يرجون الهدى والرشاد، أو دعاء أيوب عليه السلام الذي يستمطر به رحمة الله تعالى بعد طول عناء وتواصل الابتلاء، أو دعاء يونس عليه السلام في بطن الحوت يرجو النجاة من الظلمات عبر تسبيحات ضارعة.

وفي المقابل أتأمل في مصارع المكذبين ونهايات المجرمين ومشاهد العقاب الأخروي للظالمين ما يملأ قلبي بالخوف والوجل من اقتفاء آثارهم أو السير في ركابهم أو الاتصاف بصفة من صفاتهم.

***

القرآن شفاء ورحمة

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء ٨٢).

لم أشعر بوقع هذه الآية على قلبي مثلما أشعر به في أوقات الشدائد..

حقاً.. القرآن شفاء لما يخامر القلب من شكوك ووساوس وهواجس يحركها الشيطان عند اشتداد المحن وتأخر الفرج.

القرآن شفاء لما يصيب النفس من حزن وضيق وألم من جراء انتفاش أهل الباطل وعلوهم في بعض الفترات..

القرآن شفاء لكل آفات القلوب من يأس وإحباط وتشاؤم وسوء ظن بالله.

القرآن شفاء.. فقط إذا أحسنا التعامل معه، واتبعنا مواعظه وهداياته، وتدبرنا قصصه وأمثاله، وفقهنا سننه ونواميسه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (سورة ق: ٣٧).

وفي الآية عدة فوائد:

١- (شِفاءٌ)... شفاء من الشبهات والشهوات، والخرافات والشطحات، وأمراض الهوى والانحراف، وأمراض الشك والشرك، وأمراض القلوب والنفوس والجوارح، وأمراض السياسة والاقتصاد والأخلاق والاجتماع، فمتى نتناول هذا الدواء لمحو آثار الجفاء، والنجاة من البؤس والشقاء؟!

٢- (وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)... يبصّرهم بسنن الله في النفس والكون والحياة، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، ويحذّرهم من الإغترار بالدنيا الزائلة والاستجابة لوساوس الشيطان، ويرسم لهم معالم الفوز والنجاة في الدنيا والآخرة.

٣- لا يستفيد من هذا الذكر المبارك إلّا من كان صاحب قلب حيّ متفاعل، فيمتزج الذكر الرباني مع القلب الإيماني، وتسري الحياة مع القرآن إلى القلب فتحييه، وتظهر سمات الحياة القرآنية على الجوارح والسلوك.

٤- (وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً).. وكيف يعي القرآن ويتفاعل معه قلب عليه أكنّة وأغطية وحُجُب وموانع الشبهات والشهوات والرغبة في المعاصي والمنكرات والإقبال على الرذائل والمحرمات، وقد أفسدته الأمراض والآفات من الرياء والعجب والتكبر!

***

أَحْسَنُ عَمَلًا

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (سورة الكهف).

عندما يفهم المرء حقيقة علاقته بالحياة الدنيا وأنها دار ابتلاء واختبار، ومادة الامتحان فيها هي الزينة والشهوات، والنجاح في الامتحان متوقف على مدى استخدامه هذه الزينة في مرضاة الله وطاعته؛ عندها لا تغرّه الشهوات ولا تخدعه الملذات، لأن الهدف واضح في ذهنه وهو النجاح في امتحان العبودية.

وفي الآية عدة فوائد:

١- (زِينَةً لَهَا).. (زِينَةً) تُسبي العقول، وتخلب الأنظار، وتستهوي الغافلين، وهي أشبه بسراب خادع وحلم ضائع.

وهذه الزينة- إن أحسنت استثمارها- ترتقي بها في مدارج الإيمان وتنال مرضاة الرحمن، وإن أسأت استخدامها قادتك إلى مراتع الطغيان ودوامة العصيان.

٢- (لِنَبْلُوَهُمْ).. الابتلاء حكمة الخلق وغاية الوجود، وهي البوابة الكبرى لتحقيق العبودية، فمن فقه هذه الحقيقة أفلح ونجا، ومن غفل عنها خاب وهوى.

٣- (لِنَبْلُوَهُمْ).. نجح سليمان عليه السلام وذو القرنين في امتحان المُلْك والثروة، بينما فشل فرعون وقارون في هذا الامتحان! والسر هو النظرة السديدة تجاه علاقة العبودية بالابتلاء، والقدرة على التمييز بين القيم الحقيقية الباقية والقيم الزائفة الفانية.

٤- (أَحْسَنُ عَمَلًا).. ليست العبرة بالكثرة، ولكن بالجودة والإتقان، فما أكثر الأعمال التي يجدها أصحابها كالسراب الضائع يوم القيامة لأنها فقدت شرطيّ القبول: الإخلاص والمتابعة!

٥- ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك ٢).. وتذوقت حلاوة هذه الآية عندما أشغلت نفسي بالتنافس في تجويد الأعمال وإتقانها؛ فأحرص على أن يكون اليوم أفضل من الأمس، والغد أفضل من اليوم؛ فلا أنشغل بصراعات جانبية أو معارك وهمية تقلل من كفاءتي الإنتاجية أو تعطل مسيرتي الإيمانية.

٦- هذه الآية - والله أعلم- هي محور (سورة الكهف) وهي الرابط بين قصصها الأربع:

• ففتية الكهف آثروا (زينة الإيمان) على الزينة الأرضية، وفضّلوا اللجوء إلى كهف موحش على البقاء في القصور وسط أجواء الشرك الخانقة.

• وصاحب الجنتين المغرور اغتر بهذه (الزينة الدنيوية) حتى سقط في مستنقع الاستكبار، في مقابل اعتزاز صاحبه المؤمن (بزينة الإيمان) بالواحد القهار.

• وموسى عليه السلام يبحث في رحلة مثيرة عن (زينة العلم) التي تقود إلى محراب

الإيمان والتسليم بحكمة الله عز وجل.

• وذو القرنين لم ينخدع (بزينة الملك) وأبهة السلطان، بل استثمر تلك الزينة في نشر العدل وإشاعة السلام وحماية المستضعفين.

إن نسيان حقيقة أن الحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان، مُزيّنة بالشهوات والملذات: (لِنَبْلُوَهُمْ) - يقود إلى الغرور والانتفاخ والاستعلاء على منطق قارون:﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص: ٧٨)، كما أن إغفال النظر عن رؤية الفناء والهلاك المصاحب لكل ما حولك من أشياء: (صَعِيداً جُرُزاً) - يقود إلى العمى القلبي والغباء الفكري على منطق صاحب الجنتين: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ (الكهف: ٣٥).

***

كهف الإيمان

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (الكهف: ١٠).

تمر بالمرء لحظات يكتنفه الهمّ والضيق، ويشكو من مشقة وطول الطريق، وربما يشعر بأنه كالغريق يبحث عن أمل في الخلاص أو مساعدة من صديق.. فإذا أوى إلى كهف الإيمان، أحس برحمة الله تغمره، وشعر بها في العطاء والمنع، والسعة والضيق، والرخاء والشدة.. وعندها تتفجَّر ينابيع السعادة والرضا والطمأنينة لتغمر هذا القلب فتؤنس وحشته، وتسعده بمعية مولاه ورعايته.

وتأمل في قصة تلك الفتية المؤمنة التي التجأت إلى كهف ضيق موحش حفاظاً على إيمانهم، وفراراً من بطش الملك الظالم - كيف غمرت الرحمة الإلهية الكهف المظلم، فتحولت الوحشة إلى أنس، وتبدّل الخوف بالأمن، وتحول الضيق والعُسر إلى سعة ويُسر.

سبحانك ربي.. ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (فاطر ٢).

فيا لسعادة عباد الرحمن وهم يسجدون في محراب العبودية لمن يملك - بعزته وحكمته - مقاليد السماوات والأرض، وبيده - وحده - مفاتيح النفع والضر، والعطاء والمنع!

***

وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا

كثير من الناس ينظر إلى البلايا والمصائب من منظار ضيّق محدود، يقتصر فيه على رؤية مشهد واحد فقط من فصول المحنة؛ لأن نظرته قاصرة، تتركز على اللحظة الحاضرة فقط، فيستعجل في الحكم على الأمور، ويخطىء في تقييم الأحداث.

ولعل في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح ما يكشف اللثام عن الحِكَم العظيمة التي كانت تختفي وراء هذه المواقف الثلاثة التي يبدو في ظاهرها الشرّ المحض، ولكنها تحمل في طياتها الرحمة والخير، وتدعو المرء إلى التفويض والتسليم..

وفي هذه المواقف العجيبة تبرز ثلاث منهجيات مختلفة في التعامل مع القدر:

١- مرحلة التقدير الذي يعرف أصحابه حكمته في الدنيا، فقد أدرك أصحاب السفينة الحكمة والفائدة لهذا الضرر بعد ذلك.

٢-التقدير الذي لم يعرف أصحابه في الدنيا حكمته، ويتمثل في والديّ الغلام المقتول.

٣-التقدير الذي لم يطّلع أصحابه عليه، ولم يعرفوا عنه شيئاً أصلاً، ويتمثل في الغلامين اليتيمين أصحاب الحائط.

وفي هذه القصة العجيبة رسالتان هامتان:

• إنّ (الأقدار المؤلمة تُخفي بشائر عظيمة، وإن كثيراً من الأمور التي يكرهها الإنسان وينظر إليها بمنظوره البشري أنها شر محض قد أصابه، ومصيبة عظمى قضت على آماله في هذه الحياة، يكتشف فيما بعد أنها تحمل في طياتها الخير العظيم والآمال الكبيرة، فكم من مصيبة ألمّت بصاحبها فصبر عليها ولم يجزع، فكانت مقدمة للفرج والفرح، وكم من منح ولدت من رحم المحن، وكم من منع كان بوابة للعطاء، وكم من ابتلاء فتح صفحة جديدة للتمكيّن، وسبحان القائل: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦])[17].

• إن (من التجأ إلى الله حماه من شتى المخاوف والفتن، فقد كان خَرْقُ العبد الصالح السفينة بمثابة لطف إلهي خفيّ بأصحابها المساكين، إذ حماهم من فتنة الملك الظالم، وكان قتله للغلام بمثابة لطف إلهي خفيّ بأبويه المؤمنين حماهم من فتنة هذا الغلام الذي كان سيرهقهما طغياناً وكفراً ، وكان بناؤه للجدار بمثابة لطف إلهي خفيّ بالغلامين اليتيمين إذ حفظ لهما كنزهما، وكل ذلك يؤكد على أن الله قادر على تأمين من التجأ إليه واتبع منهجه من شتى المخاوف)[18].

***

17 في قصصهم عبرة، ص: ٦٩-٧٠ - علي حسن العبيدلي.

18 منهج القرآن الكريم في عرض القصص - قصة موسى عليه السلام أنموذجاً، ص: ٥٦- د.عمر عرفات.

من تجليات اسم الله (الفتاح) في قصص (سورة الكهف)

١- قصة (أصحاب الكهف):

فتح لهم أبواب الرحمة في كهف موحش مظلم، فانقلب الضيق إلى سعة، والخوف إلى أمن، والوحشة إلى أنس.

٢- قصة (صاحب الجنتين):

• الرجل (الكافر): فتح له أبواب الرخاء والنعيم امتحاناً وابتلاءً؛ فبغى وطغى، واغتر واستكبر، فطال أمله وساء عمله.

• الرجل (المؤمن): فتح له أبواب الفهم والاستدلال، وألهمه الحجج الساطعة والبراهين القاطعة؛ فحاور صاحبه ببراعة ليردّه عن غيّه وضلاله، ويحدّ من غروره، ويوقظه من سكرة استكباره.

٣- قصة (موسى عليه السلام مع الخضر):

فتح على الخضر أبواب المعرفة الباطنية والعلم اللدني التي اختصه بها برحمته، فكشف له عن حقائق لم يعلمها موسى عليه السلام وهو من أولي العزم من الرسل.

٤- قصة (ذي القرنين):

فتح له أبواب الملك والسلطان والتمكين، وأمدّه بالأسباب والقدرات والإمكانات، فاستغل هذه الفتوحات في نشر العدل، ومساعدة المستضعفين، وتأديب المعتدين.

والخلاصة: تعلق قلبك بالفتاح (سبحانه) يفتح لك من أبواب العطايا الربانية والمنح الإلهية ما لا يتصوره عقل ولا يدور في خيال.

***

الأخسرين أعمالا

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف: ١٠٣-١٠٤).

وعندما يزين الشيطان القبيح والمنكر لأهل الباطل، فإنهم يركبون الطريق المعوجة، طريق الضلال، وهي في حسابهم وتقديرهم أنها طريق خير وفلاح، فيمضوا في ضلالهم، ولا يستمعوا لنصح ناصح، ولا يستجيبوا لدعوة داع يدعوهم إلى الهدى.. إلى أن ينتهي بهم الأمر إلى البوار والخسران.

وفي الآية عدة فوائد:

١- (بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا).. واعجباه! كانت لهم أعمال كثيرة وقربات عديدة، ولكنها ذهبت أدراج الرياح لافتقادها بوصلة الإخلاص وميزان التقوى؛ وعندها يصبح السعي المتواصل هباءً منثوراً، وتكتسب الأعمال صفة الخسران، ويتذوق صاحبها ألم الإفلاس والحرمان.

٢- (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً).. ما أكثر ضحايا تزيين الشيطان! خدعهم بتزييف الحقائق، وقلب الوقائع، وتجميل المنكر والباطل، حتى فقدوا القدرة على التمييز بين الهدى والضلال، والنور والظلام.

فما أتعس حالهم غداً حين ينكشف الغطاء ويعاينون هول الجزاء!

٣- للنجاة من هذه النهاية البئيسة، لابد من تجاوز عدة عقبات منها:

- الرياء وحب السمعة وطلب المدح والثناء.
- الابتداع في الدين.
- التزيين الشيطاني للمنكر والقبيح.
- الاغترار بالصلاح والإعجاب بالطاعة.

***

في محراب الافتقار

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ (سورة مريم).

كثيراً ما أسأل نفسي: لماذا لا أتذوق حلاوة العبادة، ولذة الطاعة، وروعة القرب، ونسمات الأنس؟!، فيجيبني ابن عطاء الله: (ما طلب لك شيء مثل الاضطرار، ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والافتقار).

نعم.. فما قربك من مولاك شيء مثل اضطرارك إليه والوقوف متذللا بين يديه معلناً في خشوع وضراعة أنه ليس لك ملجأ إلا إليه، لا حول ولا قوة لك إلا به، وأن تشهد في كل ذرة من ذراتك الظاهرة والباطنة فاقة تامة وفقراً مُلِحّاً إلى الله تعالى وإلى لطفه وكرمه وعنايته وحفظه وتيسيره وتدبيره..

ولقد تأملت في هذا الدعاء الخاشع لزكريا عليه السلام وهو يعلن افتقاره، ويعترف بعجزه، ويظهر إفلاسه، وعلى قدر الافتقار تأتي العطايا بعد طول انتظار! فما أقرب رحمة الله تعالى من عباده المنكسرين!

وتذكر دائما أنه إذا عجزت الأسباب البشرية عن تحقيق ما تتمنى، فإن إرادة الله عز وجل مطلقة ومشيئته نافذة لا تحتاج لأسباب أو وسائط، فثق بربك وأحسن الظن به وتوكل عليه، ولا تيأس من رحمته في تحقيق مرغوبك: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢).

***

قيود الشهوات

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (مريم: ٥٩-٦٠).

متى أسلمت زمام نفسك للشهوات والنزوات، وجدت تقصيراً في العبادات، وضياعاً للصلوات، ونفوراً من الطاعات؛ فالشهوات قيد ثقيل يمنع الروح من السمو والتحليق، وتبقى التوبة هي الأمل في استعادة صفاء النفس بعدما تراكم عليها غبار الشهوات وصدأ الغفلات.

وما أجمل ما قاله الأستاذ خالد برية في حديثه عن الصلاة ودورها في الحماية من تدفق الشهوات: (الصلاة هي البنيانُ الآمن الذي يلوذُ به الإنسان من أعاصيرِ الفتنِ والشهواتِ والانحرافات... ولهذا، جاءَ اتباعُ الشهواتِ مباشرة بعدَ إضاعةِ الصلاة؛ لأنَّ البابَ كُسِر، ووجدَ الإنسانُ نفسه بلا موعدٍ معَ السماء، انقطعَ حبلُ الرشدِ والهداية، الحبلُ الناظمُ لحياةِ الإنسان، ميزانُ الاتزانِ بينَ رغائبِ الدنيا ومتطلباتِ الروح، فإذا ما ضاعَ كلُّ ذلك، طاشَ وتاه وغَرقَ، واتَّبعَ الشهوات، وكفىٰ بهذا الاتباعِ انحداراً وسفولاً، أوداه إلى الغيّ يومَ القيامةِ والحساب!)[19].

***

19 سطوة البيان الخالد، ص: ٩٠.

قانون السعادة والشقاء

أتعجب عندما أطالع قول ربي عزوجل: ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ (طه:٢)، ثم أنظر إلى أحوال الكثير من المسلمين اليوم وقد امتلأت حياتهم بالتعاسة والهمّ والشقاء رغم وجود كتاب الله بين أيديهم في أفخر الطبعات، وفي كل بيت نُسخ منه، وهو يُتلى دائماً في كل مكان.. فأسأل نفسي ما السرّ في ذلك؟.. والجواب أنهم يحرّكون ألسنتهم بلفظ كلماته وتجويد تلاوته، ولكن لا يفكرون في وجوب تحريك عقولهم لفهم معانيه.

وكلما قرأت هذه الآية.. أسأل نفسي:

كيف تعاني القلوب من الهمّ والشقاء وبيدها الدواء؟!

كيف تعجز النفوس عن الإصلاح والتغيير وهى تملك المصباح المنير؟!

كيف تقسو القلوب وهي تتلو مواعظ القرآن التي تبدد ظلمة الذنوب؟!

كيف تنغمس النفوس في الجهل والضلالة وكتاب ربها يدعوها للهدى والسعادة؟!

واعجباه.. نشكو من البؤس والهمّ والشقاء، وبأيدينا البوصلة التي تهدينا إلى طريق الهداية والسعادة!

فمتى نتعامل مع القرآن من أجل شفاء كل آفاتنا وأدوائنا التي تحرمنا من تذوق الطمأنينة والسعادة؟!

متى نستخدمه دليلاً لرحلتنا على هذه الأرض، وننتفع به كبوصلة هادية يرشدنا إلى عقبات الطريق وكيفية تجاوزها لنضمن السعادة والفلاح في الدنيا قبل الآخرة؟!

وفي المقابل.. فإن الإعراض عن كتاب الله تلاوة وتدبراً، وهدايةً وتحاكماً هو مفتاح الضنك والشقاء، والضيق والعناء: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ (طه: ١٢٤).

وكفى بالإخلاد إلى الأرض ومكابدة حصار خانق من الشهوات والرغبات والملهيات، وامتلاء القلب بالحرص وطول الأمل والخوف من فوات المتاع الدنيوي تعاسةً وحرماناً!

***

انتصار الإيمان

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (طه: ٧٢).

عندما يغترف القلب من معين اليقين، يصبح قادراً على رؤية الأشياء على حقيقتها كما هي، فتبدو الدنيا قصيرة زهيدة حقيرة، وتبدو الآخرة - وحدها - هي الحياة الحقيقية التي تستحق التضحيات وتَحمّل المشقات.

وسحرة فرعون نموذج رائع لمن أشرقت أنوار الإيمان في قلوبهم، فأزالت الغشاوة عن الأبصار، وأيقنوا أن الملك الحقيقي لله الجبار، بيده وحده النفع والضر، والمنع والعطاء، والحياة والموت، ورأوا فرعون على صورته الحقيقية قزم ضعيف هزيل لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فلم ترهبهم التهديدات، ولم تستخفّهم الإغراءات.

وهكذا يصنع الإيمان!.. ميلاد جديد يمنح الفكر والعاطفة والمشاعر رؤية سديدة للحياة بعيداً عن الإغترار بالزينة الخادعة والأبهة الفارغة.

ما أعجب الإيمان عندما تخالط بشاشته القلوب!؛ فيحول العبيد المستضعفين في الأرض إلى سادة تطاول كبرياؤهم على الطغيان والطواغيت كالجبال الرواسي، فيقفون شامخين ساخرين من الطغيان وانتفاخه؛ غير آبهين بما يملك من وسائل تعذيب وإبادة، مرددين في ثبات وصلابة ويقين: ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (طه: ٧٢).

***

وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طه: ١١٥).

يقول د. فؤاد البنا في ظلال هذه الآية:

(إنّ ضعف الذاكرة وضعف الإرادة من أهم مداخل إبليس إلى الإنسان، وهما اللذين خسر آدم مكانته الفردوسية بسببهما، وكأنّ الله يقول لأبناء آدم: من أراد الجنة فإن عليه التسلح بقوة التذكّر وقوة العزيمة، ولا سيما أن الإنسان سيواجه عدوا ذا عزيمة قوية وهو إبليس الذي قال بعد أن غضب الله عليه وطرده من الجنة: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ١٦).

ومن المعلوم أنه لا يَفلّ الحديد إلا الحديد، ولا يمكن مواجهة هذه العزيمة الشيطانية إلا بإرادة آدمية تستقوي على التزيين، وتستعصي على الوساوس، وتنتصر على كافة محاولات الإغراء والإغواء)[20].

وإن من أكثر ما يضعف الإرادة ويوهن العزيمة الانغماس في الشهوات والملهيات، والإكثار من المتع واللذات، ولذلك أوجد الإسلام للتذكّر منظومة كبيرة تحمي الإنسان من السقوط في مستنقع الغفلة والنسيان، ومنها إقامة الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه: ١٤)، ومنها الصيام الذي يكسر حدة الشهوة، ويقوي العزيمة، ومنها التفكّر في آيات الله وآلائه المبثوثة في صفحات هذا الكون البديع، وذكر الله بأذكار مخصوصة عند كل واحدة من هذه الآلاء والأوقات كأذكار الصباح والمساء، وهكذا تأتي تلك العبادات بمثابة دورات تدريبية مكثفة لتقوية عضلة الإرادة.

فمن غفل عن هذا الزاد العظيم فلا يلومنّ إلا نفسه!

***

20 منهج الرشد القيادي في قصص القرآن، ص: ١٥٥، وراجع أيضاً (قصص العروج) للمؤلف.

بنيان التوبة

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ (طه: ٨٢).

ويحك.. أتظن أن التوبة زفرات تُطلقها، أو دموع تُسكبها، أو كلمات حارة في باب الندامة تردِّدها؛ دون أن يدفعك ذلك لإصلاح ما مضى وفات، أو المسارعة إلى الطاعات والمبادرة إلى الأعمال الصالحات، أو قمع الشهوات ومدافعة السيئات؟!

كلا.. التوبة.. تذلل وافتقار.. خوف من الجبار.. تصحيح مسار.. ترك للذنوب والأوزار.. محاربة الشيطان بعزيمة وإصرار..

خلاصة القول: التوبة بناء وارتقاء.

وما أجمل ما كتبه الشيخ محمد الغزالي رحمه الله وهو يوضح حقيقة التوبة:

(والتوبة كلمة شائعة على الألسنة، حتى لكأنّ شيوعها ابتذلها وأطفأ سناها الكريم، ومع أن دلالة الكلمة تجعلها أخطر من أن يجازف بها.

هل يلغو إنسان فيقول: بنيت قصرا، أو يلغو فيقول: ألّفت كتابا! إن بناء قصر شاهق أهون من بناء نفس خرِبة، وإن تأليف كتاب ثمين أرخص من تأليف نفس فرّق الهوى أقطارها، والتوبة هي هذا البناء والتأليف، فمن الهزل العجاب أن تدور على الألسنة دون تيقظ وإدراك)[21].

***

21 الجانب العاطفي من الإسلام، ص: ١٥٧.

النظرة المتطلعة

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه: ١٣١).

إنّ دوام النظر والتطلّع إلى ما عند الناس من زينة ومشتهيات يرهق الفكر، ويحزن القلب، ويغمّ النفس، ويجعل المرء في لهاث لا ينقطع وراء الشهوات والبحث عن متاع يبهج العين، ويسرّ القلب.

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يراها قد رسمت للمؤمن أفضل الطرق وأحكمها، لكي يحيا حياة فاضلة طيبة، حياة يعتز فيها صاحبها بالمعاني الشريفة الباقية، ويُعرِض عن المظاهر والزخارف الزائلة.

وفي الآية عدة فوائد:

١- (وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ).. نظرتك إلى ما عند الآخرين تعميك عن رؤية ما منحك الله تعالى من نعم ومميزات، كما تدعوك لاستصغار العطايا واحتقارها، وتقتل في داخلك أدب القناعة بما قسمه الله لك.

٢- (زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا).. زهرة تبتهج بها نفوس المغترّين، وتأخذ إعجاباً بأبصار المعرضين، ويتمتع بها الغافلون، ثم تذبل وتجفّ كأنها لم تكن شيئاً.

٣- (لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ).. التمتع بالحياة الناعمة المترفة وأسبابها ليس دليلاً على الكرامة أو الإهانة، ولا يرتبط بالكفر والإيمان؛ ولكنّه ابتلاء واختبار لتمييز الشاكر من الكفور.

٤- (وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى).. طمأنينة النفس وهدوء البال، وصواب البصيرة وسداد الرأي، والرضا والقناعة - من أعظم الأرزاق وأدومها نفعاً في الدنيا والآخرة.

***

احذر الغفلة

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (سورة الأنبياء).

فتشت في أمراض القلوب فلم أر داءاً أسوأ عاقبة- في الدنيا والآخرة - من الغفلة، فهي منبع كل الشرور والآفات، وكل أمراض القلوب الأخرى تعود إلى الغفلة.. فالمتكبر غافل عن حقيقة نفسه وضعفه وعجزه وفقره.. والحاسد غافل عن حكمة الله عز وجل في تقسيم الأرزاق وتوزيع المواهب والملكات.. والمعجب بنفسه غافل عن مقام الله عز وجل وجلاله وكماله، وغافل عن خطورة نفسه الأمارة بالسوء وضرورة تزكيتها وتهذيبها.. والمفتون بحب الدنيا غافل عن قيمة الدنيا في ميزان الله وأنها قصيرة سريعة الزوال.. واليائس غافل عن حكمة الله ورحمته ولطفه وقدرته وسننه في اليسر والعسر.

أرأيت خطورة الغفلة؟ فهل حصّنت نفسك منها؟

وفي افتتاح (سورة الأنبياء) بالتحذير من هذه الغفلة فيه إشارات لطيفة وفوائد نفيسة:

١- أهمية رسالات الأنبياء في إخراج الناس من ظلمات الغفلة إلى أنوار الهدى، وتبصيرهم بأهم الآفات التي تعوق سيرهم إلى ربهم، إن وحي السماء هو طوق النجاة الذي ينتشل الناس من مستنقع اللهو والغفلة متى تمسكوا به وفقهوا معانيه، ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠).

٢-إن الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف، فبعد الموت حساب وثواب وعقاب، إنها مسئولية جسيمة كثيراً ما يحاول المرء تناسيها لينغمس في حياة اللهو والعبث، وعندما يغيب عن القلوب الإحساس العميق باليوم الآخر وما فيه من شدائد وأهوال؛ تقسو وتُظلم؛ فترتع النفوس في شهواتها، وتستسلم لنزعات أهوائها، وتدور في فلك ملذاتها ومغرياتها، فإذا طالت هذه الفترة، قُيّدت النفس بسلاسل الغفلة، فلا تقوى على الحركة، وربما يزين لها الشيطان البقاء في هذه الحالة والرضا بها، فتفقد الشعور والإحساس، وما لجرحٍ بميّتٍ إيلامُ!

٣- إذا أردت أن تدرك عمق آبار الغفلة التي يحبس أكثر الناس أرواحهم فيها؛ فتأمل في مجالس العزاء ومواقف الموت تجد أن أكثر حديث هؤلاء عن الدنيا وشهواتها وملاذها، وملهياتها ومفاتنها حتى في هذا الموطن العصيب التي تخشع لعظمته القلوب وتنكسر لهوله النفوس؛ ترى القلوب غارقة في مستنقع الهوى تشرب من كأس الغفلة حتى الثمالة، فلا قلب يخشع، ولا عين تدمع، ولا موعظة تنفع، والله المستعان.

***

ذكرى للعابدين

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ (سورة الأنبياء).

إن أنبياء الله وأصفياءه يُبتلون بالضرّ كما يُبتلى الناس، فيزدادون إيماناً وقرباً منه سبحانه، وطمعاً في رحمته، فها هو أيوب عليه السلام مع هذا البلاء العظيم الذي شمله في نفسه وأهله وماله جميعاً، لم يستبدّ به الجزع، ولم تستولِ عليه الحيرة، ولم تحرقه أنفاس الضيق والألم، بل ظلّ مجتمع النفس، ساكن الفؤاد، رطب اللسان بذكر الله.

وفي الآية عدة فوائد:

١- (وقد جمع *أيوب عليه السلام* في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في التملّق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشف عنه بلواه)[22].

٢- (أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)..

• لا يبتليك ليعذّبك، ولكن ليهذّبك ويطهّرك من الآفات والأدواء التي تعوق تزكية نفسك وتعطّل سيرك في طريق العبودية.

• حسن الظن بالله، والطمع في رحمته، ورجاء كرمه، والاستبشار بفرجه ــ هي سيمياء المؤمن الصادق الذي لا تزعزعه رياح المحن أو عواصف البلاء.

٣- (فَاسْتَجَبْنا لَهُ).. ما أسرع الاستجابة الربانية للقلب الذي استشعر فقره وفاقته، وعجزه وضعفه، حتى رفع رأسه إلى السماء، وناجى ربه بكلمات ضارعة خاشعة تنبض حياةً بمشاعر الإيمان، وأنفاس التسليم والرضا.

٤- (ذِكْرى لِلْعابِدِينَ).. تُذّكرهم أن البلاء لا يدل على الشقاء، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الشدائد تصقل النفوس وتقوي العزائم، وتمنح النفس القدرة على الاستعلاء على زينة الدنيا الزائلة وبهرجها الخادع.

***

22 الفوائد، ص: ٢٩٢ - الإمام ابن القيم.

استدراج الغافلين

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ * نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٥-٥٦).

كثير من الناس ينظرون إلى ما يمدّهم به ربهم من ألوان الرغائب والنعم واللذائذ والمشتهيات على أنه دليل رضا وكرامة، فيقودهم ذلك الظن إلى مزيد من الغفلة والجحود، وتُسكِرهم نشوة الاستكبار، ويعميهم بريق الشهوات؛ عما في هذه النعم من استدراج، وما قصة قارون منك ببعيد..

وفي الآية عدة فوائد:

١- (أَيَحْسَبُونَ).. وكم قاد الظن الخاطىء والتقييم المنحرف للأمور ــ أصحابه إلى مزيد من قسوة القلب، وجحود النعمة متأثرين بالتزيين الشيطاني الذي يُعمي البصائر عن رؤية الحقائق..

تأمل في كتاب الله:

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ٣٠).

﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف: ١٠٤).

٢- (مالٍ وَبَنِينَ).. آفة البشر عبر التاريخ الاغترار بالمال والبنين والتفاخر بهما، ونسيان أنهما نعمة تحتاج إلى شكر، وفتنة لتمييز الصادق من الكاذب: ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ: ٣٥).

٣- (لا يَشْعُرُونَ).. القلب الغافل الذي أسكرته نشوة النعم معطّل عن وظيفته، لا يرى في تتابع النعم وازدهارها إلا دليل كرامة وعلامة قبول، وهذه علامة انطماس البصيرة واستيلاء الغرور على النفس.

قال بعض الصالحين: (من يعص الله - تعالى - ولم ير نقصاناً فيما أعطاه - سبحانه - من الدنيا فليعلم أنه مُستدرجٌ قد مُكِر به).

***

أمنيات العاجزين

﴿حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحًا فِيما تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٩-١٠٠).

عند الموت ينكشف الغطاء، وتزول الغفلة، وتنقشع ظلمات الباطل وحُجب الهوى، وتبقى أمنية العاجزين والغافلين العودة مرة أخرى للحياة الدنيا لاستدراك ما فات، والرجوع إلى الطاعات، والتوبة من المعاصي والسيئات، ولكن هيهات هيهات ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٢).

الآن زالت الغشاوة عن بصرك القلبي، الآن عاينت الحقائق القرآنية التي طالما غفلت عنها واستهزأت بها، أين حُجُب الشهوات والملذّات؟..

واحسرتاه.. لقد منعت هذه الحجب والأغطية النفس من التفكّر والتدبّر في مشاهد القيامة وهي ما زالت في حياتها الدنيا، ولكن ما زالت الفرصة سانحة، وفي العمر بقية لاستدراك ما فات قبل الفوات.. فهلّا نتدبّر ذلك قبل حلول المهالك!

وفي هذه اللحظات الفارقة وعندما يواجه المرء الموت عياناً، ويستعدّ عندها للوقوف على حافّة الآخرة، يتذكر كم فرّط في طاعة مولاه، وكم شغلته الزينة عن القيمة، وكم خدعه الشيطان وألهته طول الآمال.. يالها من لحظات يغفل عنها الكثير رغم أنهم يرونها ويعاينوها في أقربائهم وأحبابهم!

وإذا تأملت في موقف فرعون المتغطرس عندما أدركه الغرق، وأيقن بالهلاك فقال في ضعف واضح وعجز فاضح: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٩٠)، علمت مدى الغبن الذي يُلحِقه المرء بنفسه عندما يسوّف التوبة، ويؤجل قرار العودة إلى الله.

وتأمل في دلالات كلمة (كَلاَّ)... فهي تنسف أمنيات، وتزرع حسرات، وتطلق آهات وزفرات.

(كَلاَّ)... تنبئك عن أهمية الرجوع إلى مولاك في فترة الإمهال والاختبار قبل أن تعاين الأهوال والأخطار.

(كَلاَّ)... تخبرك أن ما بعد الموت أدهى وأمر؛ فبادر قبل الفوات، فالفرصة الآن لا زالت مواتية للإصلاح وتقويم المسير.

***

الكلمات المفخخة

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (النور١٥).

في هذه الآيات عاتب الله عز وجل بعض أهل الإيمان على مسارعتهم في نقل مقالة السوء وما ذُكر في شأن الإفك باتهام السيدة الطاهرة العفيفة عائشة رضي الله عنها بفاحشة الزنا دون تحقيق أو تدقيق، فهي مجرد كلمات تتقاذفها الألسنة قبل أن تستقر في العقول، أو حتى تمر عليها.

وما أكثر الذين يستخفّون بالكلمة وينفقون من رصيد ألسنتهم بغير حساب، ظانين أن ذلك لا يضيرهم في شيء أبداً، غافلين عن أثر كلمة السوء في فساد المجتمع وانهيار بنيانه وإشعال نيران العداوة والخصام بين أفراده، فضلاً عن عقابها الشديد في الآخرة..

وبعض الكلمات مفخّخة، تنسف الأواصر وتدمّر العلاقات، وتغرس الشحناء، وتغري بالقطيعة وتستدعي الشيطان، وتقوّض البنيان، وتهدم التواصل وتبدِّد المودة والتراحم!

يا ليتنا تدبرنا الوصية النبوية الثمينة في التحذير من خطورة الكلمات العابرة التي نغفل عن خطورتها، وذلك عندما قال (ص): *وإنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن سَخَطِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَهْوِي بها في جَهَنَّمَ* (صحيح البخاري: ٦٤٧٨).

واحسرتاه.. كم تخصم كلمات الزور والبهتان من رصيد التقوى والإيمان.. فهلّا ننتبه قبل فوات الأوان؟!

***

خطوات الشيطان

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٢١).

خطوة تلو خطوة، ومعصية إثر معصية، وشهوة عقب شهوة، حتى تقع في شباكه وتُقَيّد في أسرِه، فيسقط عنك لباس التقوى، ويُنزع منك ثوب الحياء، فلم تعد تبصر إلا ما يزيّنه لك الشيطان من مسالك الهوى والشهوات المحرّمات، حتى توشك على الهلاك إلا أن يتغمدك الله بواسع رحمته ويمنّ عليك بتوبة نصوح تعيدك إلى طريق الهدى وسبيل الإيمان.

***

عشاق الفاحشة

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور: ١٩).

في هذه الآية تحذير شديد لمن يحب ترويج الفاحشة، ونشر الرذيلة، وإشاعة الانحلال الخلقي، فكيف بمن ينشرها، ويجمع لها أهلها، ويحميهم، ويقنن لهم، ويفسح الطريق أمامهم؟

(وكيف بمن يعمل على التهوين من خطرها، وفتح باب الشهوات؛ من تبرج، واختلاط، ومجون تحت أي اسم جاءت، كما هو شأن كثير من القنوات الإعلامية اليوم؛ حيث جعلت من الشهوة المحرمة ديدناً لها في كل عمل فني أو دعائي، متسترة خلف قيم الحرية)[23].

ولقد حذّرنا الله تعالى من السير في المسالك الوعرة لطلاب الشهوات الذين يسعون في إغراقنا في مستنقع الفجور، وإبعادنا عن سبيل الهدى والاستقامة، وأفياء التوبة والطهارة: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٢٧).

فيا من يسعى في نشر المقاطع الفاضحة، والصور الفاتنة، والكلمات المهيّجة، التي تثير الغرائز، انتبه! فإن ربك بالمرصاد، ووعيده للمنحرفين شديد.

***

23 مجالس النور، ج ٢ / ٩٤٢- الشيخ محمد عياش الكبيسي.

هجر القرآن

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان: ٣٠).

من أعجب الأمور أن تهجر القرآن رغم أنك تقرأه! تهجر تدبره والعمل به، تهجر الانتفاع بمواعظه والاهتداء بأنواره، تهجر سننه وقوانينه وتشريعاته، تهجر القرآن عندما لا يُرى للقرآن أثرٌ في خلق أو سلوك أو تغيير.

وهذا ما أكد عليه الإمام الحسن البصري رحمه الله:

(وما تدبُّر آياته إلا اتِّباعُه؛ ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن كله، فما أُسقط منه حرفاً وقد – والله - أسقطه كله؛ ما ترى القرآن له في خلق ولا عمل حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نَفَس، والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة، ومتى كانت القراء تقول مثل هذا؟)[24].

***

24 مختصر قيام الليل للمروزي، ص: (١٧٦).

لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (سورة الفرقان).

عجيب أن تأتي هذه الآيات التي تصوّر حسرة وندم الظالمين يوم القيامة في (سورة الفرقان) بالذات- والتي تدور حول التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال.

وكأن سائلاً يسأل ما الذي أورد هؤلاء التاعسين موارد الهلاك والخسران في الآخرة رغم وجود الفرقان بين أيديهم يرشدهم ويهديهم إلى الصراط المستقيم؟

إنّه إغواء الشيطان وتزيينه، فقد أعماهم عن اكتشاف تعاليم الإسلام الجليلة في العقيدة والسلوك، وزين لهم مناهج الكفر والضلال والباطل، حتى آثروا الهوى على الهدى، والظلمات على النور، والدنيا الفانية على الآخرة الباقية.
باختصار هجر الفرقان يؤدي إلى اضطراب الموازين وضياع القيم، ومسخ الفطرة وعبادة الذات والشهوات، والاغترار بأحابيل الشيطان، والوقوع في أسر صحبة السوء!.

وما أجمل وصية الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله:

(إذا أردت أن تعرف شرّ خِلّانك، وأحقّهم بهجرك له وابتعادك عنه: فانظر فيما يرغِّبك هو فيه، وما يرغِّبك عنه.

فإذا وجدته يرغِّبك عن القرآن، وعما جاء به القرآن فإياك وإياه، فتلك أصدق علامة على خبثه وسوء عاقبة قربه، فابتعد عنه في الدنيا، قبل أن تعضّ على يديك على صحبتك له في الأخرى.

وإذا وجدته يرغِّبك في القرآن وما جاء به القرآن، فذلك الخليل الزكي الصادق، فاستمسك به، وحافظ عليه.

وإن خلّة أُسِّست على الرجوع إلى القرآن، والتحابّ على القرآن، والتناصح بالقرآن؛ لخِلّة نافعة دنيا وأخرى، لأنها أُسست على أساس التقوى، وقد قال الله تعالى:﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف ٦٧])[25].

***

25 تفسير ابن باديس، ج ٢/٤١.

الهيمنة الربانية

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ (سورة القصص).

هذه القصة العظيمة تلخص حقيقة هامة يغفل عنها الكثير من الناس وهي: (من كانت معه قوة الله فلا خوف عليه، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع قوى الكون)، فإن جبروت فرعون ونفوذه وحشوده، ويقظته وحذره لم تدفع عنه خطر الطفل الصغير المجرد من كل قوة إلا من قوة الله عز وجل، فكان هذا الطفل الذي تربى في حجر فرعون سبباً في إنهاء جبروت فرعون وسلطانه..

وفي الآيات عدة فوائد:

١- (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ).. استحضار رعاية الله وعنايته لأوليائه فيه طمأنة وتثبيت للقلوب المستضعفة والمكروبة التي أقضّ مضجعها الخوف والقلق.

٢- (فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي).. (إذا خفتَ أمراً.. ثم تيقنت أن الله معك.. فاعلم أن مخاوفك قد انتهت) (الشيخ علي الفيفي).

٣- (وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي).. دعوة للسيطرة على مشاعر الحزن والخوف عن طريق الاستعانة بالله وحسن التوكل عليه، فإدمان الخوف والحزن هو البوابة الكبرى لكثير من الأمراض النفسية المستعصية.

٤- (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ).. علام الخوف والقلق والأمر كله بيد الله، بيده مفاتيح كل شيء، وحده يملك العطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والقهر والكبرياء؟!

٥- (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا).. ما أضعف البشر المهازيل أمام تدبير الله عز وجل وإرادته.. حقيقة قلّما يتذكرها الطغاة والمستكبرون وقد أسكرتهم نشوة القوة والبطش.

٦- إياك والإغترار بهيمنة أهل الباطل الزائفة وقوتهم الخادعة؛ فهي صورة من صور الابتلاء في هذه الحياة سرعان ما تنتهي وتزول، ثم يرجع الجميع للمهيمن سبحانه، فطوبى لمن عاد إلى صوابه قبل وقفة حسابه!

***

غرور المخدوعين

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ (سورة القصص).

١- (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ).. جنون عرض الثروة وإظهارها من سمات أصحاب الأموال والثروات؛ فهو يشعرهم باللذة الطاغية، والاستعلاء على الآخرين، وشأن الكيّس الفطن ألا ينخدع بتلك الزينة، وأن يدرك حكمة الابتلاء فيها وحتمية المحاسبة عليها.

٢- (قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا).. وما يريد الحياة الدنيا ويتعلق بها إلا من فقد البصيرة الإيمانية، وأعمته الشهوات المادية، وغرّته الوساوس الشيطانية؛ فأصبحت الدنيا منتهى أمله وغاية طموحاته!

٣- (يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ).. عند خواء القلب من المعرفة والإيمان، تتبدل القيم وتختل الموازين، وتضطرب التصورات، ويصبح همّ النفوس الغافلة البحث عن لعاعة من الدنيا تسد جوعتها وتشبع نهمتها، وتوهمها بأنها في منزلة سامقة وسعادة خالدة!

٤- (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ).. كفى بهذه الآية دليلاً على شرف العلم ومزيته، فهو وحده - بعد توفيق الله - القادر على حماية النفس من الانسحاق تحت ضغط الشهوات ووطأة المتاع الدنيوي الذي يخلب الأبصار ويبهر العقول!

لقد وجدت أن أكثر الناس انخداعاً ببريق الشهوات وسحر الكنوز والثروات ــ هم الذين لم يتذوقوا يوما لذة العلم وروعة المعرفة! فالعلماء ينظرون أبعد مما ينظر أهل الجهل وأهل الغفلة، فمعايير السعادة عندهم لا تحكمها الشهوة الزائلة، ولا اللحظة العابرة.

***

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (النمل: ٦٢).

من أعجب لحظات الاضطرار التي تذوقت حلاوتها في حياتي ــ عندما ابتلاني الله عز وجل بانزلاق غضروفي في الفقرات العنقية قبل ثلاث سنوات، وذهبت إلى مركز الأشعة لعمل رنين مغناطيسي، وما إن دخلت على الجهاز الكبير المخيف؛ وجدتني لم أستطع الاستلقاء على ظهري من شدة الألم الرهيب، فذهبت للصيدلية وأخذت حقنة مسكن قوية، ثم عدت للجهاز مرة أخرى ولكن دون جدوى، نفس الألم الذي لا أستحمله لمدة دقيقة، فما بالكم بالجلوس ما يقرب من نصف ساعة في هذا الجهاز وهي مدة الأشعة تقريباً!

حاولوا الاتصال بدكتور التخدير ليتم تخديري، ولكنه أخبرهم بأن الأمر لن يفلح في ذلك..

تركت غرفة الأشعة ودخل مكاني المريض تلو الآخر، وأنا أفكر في الحل؛ فطبيب العظام طلب أشعة من أجل التشخيص الدقيق، والألم لا يُطاق، ثم نظرت إلى السماء وقلت بلسان الحال- وأنا في أشد لحظات العجز والافتقار: (يارب.. أنا مش قادر.. وأنت صاحب الملك والتصريف والتدبير، يا رب الحلّ من عندك) ما زدت على ذلك، ثم دخلت غرفة الأشعة ونفس الألم يتكرر، فأوحى الملك عز وجل إلى أحد العاملين هناك أن يضع وسادة تحت كتفي طوال فترة جلوسي، وعندها اختفى الألم بدرجة كبيرة وأصبحت قادراً على التحمل وانتهت الأشعة بفضل الله، وتعلمت منها الدرس الكبير: (على قدر الافتقار والاضطرار، يأتي الغيث المدرار).

والآن أعد قراءة هذه الآية بقلبك مرة أخرى، ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ واعلم أن (من المضطرين: المريض الذي تردّت صحته، والمديون الذي أنهكته الديون، والمُجهَد الذي انسدّت في وجهه السبل، والمظلوم الذي أُحيط به، والمكروب الذي نهشته الرزايا، وتخلّى أقرب الناس عنه، ومن خلال حوائجهم تنصرف أمانيهم إلى خالقهم، فيتعاظم الإخلاص، وتشتعل الرغبة، ويشتد اللُجأ، ويطول الإلحاح حتى إن القلب ليحزن، والدمع لينهمر، والروح لتنكسر، حتى يأذن الله بفرجه، وتنسكب رحماته، وتتضاعف أفضاله، فلا تشاهد بعدها إلا سروراً وأنساً)[26].

***

26 المُرج المخضر إلى إجابة المضطر ص٩١-٩٢ - د. حمزة بن فايع الفتحي.

امتحان الإيمان

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت: ٢-٣).

هاتان الآيتان تدفعان توهّم من يتوهم أن المؤمن معافى من الابتلاء، وتقرران أن الابتلاء سنة ربانية لا تستثني أحداً؛ لتمييز الصادق من الكاذب، والمخلص من المنافق.

ولعليّ أقف معك سريعاً مع أبرز حكم الابتلاء:

١- تمييز أصناف الناس:

فما أسهل دعاوي الإيمان في لحظات الاستقرار والرخاء، وما أصعب ممارسة هذا الإيمان عندما يدخل المرء ساحة الحياة ويتعرض للتحديات والضغوط والإغراء، وعندها يتبين الذهب من التراب، والصدق من الادعاء.

٢- تكفير الذنوب وحطّ الخطايا:

لما كانت الذنوب تشكل عائقاً أمام ارتقاء العبد في مدارج الإيمان، وتحرمه من تذوق حلاوة الطاعة؛ كان الابتلاء هو الدواء الناجع لتكفير تلك الخطايا، وما أجمل الحديث النبوي: *ما يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِن نَصَبٍ ولَا وصَبٍ، ولَا هَمٍّ ولَا حُزْنٍ ولَا أذًى ولَا غَمٍّ، حتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بهَا مِن خَطَايَاهُ* (صحيح البخاري: ٥٦٤٢).

٣- تذكير العبد بضعفه وحاجته لربه:

ذلك أن إلف النعمة وتتابع الرخاء قد يُنسي المرء حقيقة ضعفه وافتقاره لخالقه؛ فتأتي المحنة لتكشف الغبار عن الفطرة السليمة، وتبدد سحب الاستغناء الوهمية، وتمنح العبد هُويّة عبوديته.

٤- تمحيص المؤمنين وتقوية عزيمتهم:

(وما المصائب والفتن والأذى الذي يتعرض لها المؤمن إلا كالتطعيم الذي يُعطى للصغار من نفس الداء لتتعرف أجسامهم على أنواع المرض فتشتد مقاومتها في سائر الأزمان، وكلما اشتد الأذى بالمؤمن ازداد تمحيصاً وازداد صلابة في دينه)[27].

***

27 ابتلاء المؤمنين في ضوء سورة العنكبوت، ص: ٧٢- د. حسين عبد الحميد البر.

المجاهدة سبيل الهداية

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

اقتضت حكمة الله أن يكون طريق الهداية محفوف بالشهوات والمخاطر، والعقبات والمطبات؛ ليبين الصادق من الكاذب، والمجاهد من القاعد.. فالمرء وهو يسعى في الاستقامة يواجه معارك عديدة ضد الشيطان، و نوازع الهوى وبريق الشهوات، والنفس الأمارة بالسوء، واليأس والإحباط، والإسفاف واللغو والباطل.. وهكذا يظل المؤمن في جهاد دائم ومتواصل يستغرق العمر كله...

وفي الآية عدة فوائد:

١- (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا).. جهاد لفطام النفس عن مشتهياتها ورغباتها، جهاد وساوس الشيطان حتى لا تقع النفس في فخاخه وكمائنه، جهاد حتى لا تنطفىء شعلة الأمل؛ فتقع النفس أسيرة اليأس والإحباط، جهاد في قول كلمة الحق والدعوة إليها ولو خالفت أهواء الآخرين، جهاد في طلب العلم والتمسك بالفضيلة في زمن الفتن، جهاد في الحفاظ على الصلة بالله عز وجل من خلال الصلاة والذكر فهما زاد جهاد النفس على الفحشاء والمنكر.

٢- (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا).. تأمل كلمة (جاهدوا) في القرآن كله تجد أنها دليل المحبة، وبرهان الصدق، وعنوان الإيمان، وثمن الجنة، وسيمياء الأنبياء والصالحين، ومخالفة للمنافقين، والآيات أكثر من أن تُحصر!

٣- (جَاهَدُوا فِينَا).. (ليس جهاداً من أجل نصرة ذات، ولا جماعة على حساب أخرى، وليس من أجل لعاعة من الدنيا، أو ركض وراء كرسي أو منصب، بل هو جهاد في ذات الله) (د. عمر المقبل).

٤- (لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا).. الهداية هي الجائزة الكبرى والمنّة العظمى التي تفتح لك أبواب الأمن والأمان في الدنيا والآخرة، وتعصمك من الزيغ والانحراف.. فاحرص على تلمّس أسبابها.

٥- (وَإِنَّ اللَّـهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ).. وكفى بمعية الله تعالى بقوته وعزته وسلطانه تطميناً لقلوب المتقين، ودافعاً للحاق بركب المحسنين، وتهويناً لكل العقبات والمشقات.

***

امتحان الطاعة

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦).

الإيمان الحقيقي يثمر الولاء لله ورسوله، والتسليم المطلق لأمر الله ورسوله دون تململ أو اعتراض. ويبقى اتباع الهوى هو العائق الأكبر أمام تحقيق الخضوع والاستسلام؛ فكل تمرّد على طاعة الله عز وجل مرجعها إلى قوة سلطان الهوى على القلب.

وقصة بقرة بني إسرائيل تجسد نموذج التمرد والعصيان، وتكشف عن طبيعة النفوس العاتية التي أدمنت التحايل على أوامر الله والتهرب منها، واختلاق الحجج والأعذار.

إن التلكؤ في تنفيذ أوامر الله والتحايل للهروب من تكاليفه - من سمات القلوب القاسية التي خلت من تعظيم الله عز وجل وإجلاله، وتمادت في ارتكاب المعاصي وإدمان المخالفات.

فمتى وجدت تهاوناً أو تكاسلاً في الاستجابة لأوامر الله ، فاتّهم قلبك!!

***

أضرار الترف

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ (سبأ: ٣٤).

إن الانغماس في نعيم الدنيا ولذاتها، والانكباب علي شهواتها، والإسراف في مآكلها ومشاربها ومراكبها، يُقيّد المرءَ بقيود تمنعه من سرعة الانقياد لأمر الله، والاستجابة لتكاليفه.

(فكم منع الترفُ من عبادات! وكم فوّت مِن قربات، وكم كان سبباً للوقوع في المحرّمات؛ فإن الترف وكثرة الإرفاه (أي: التنعُّم والدَّعَة) تُصيّر الإنسان شبيهاً بالأنعام التي ليس لها همٌّ إلا التمتع في الأكل والشرب! وكذلك يُرَهِّل البدنَ (أي: يجعله في حالة اضطراب واسترخاء من غير داء) ويُكسِله ويُثقِله عن الطاعات، ويُشغل القلبَ في مُرادات النفس، ومراداتُها كم حملت صاحبها على جمع الأموال من غير حِلِّها! وحملت النفس على الأشر والبطر، والرياء، والفخر والخيلاء، والاستكثار من قرناء السوء!)[28].

***

28 المواهب الربانية من الآيات القرآنية، ص: ٩٢- الشيخ السعدي رحمه الله.

الرحمة الإلهية بين المنع والعطاء

﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (فاطر: ٢).

عندما بحثت في كتاب الله عز وجل عن آية أُدواي بها هموم قلبي وجراحه – خاصة في أوقات المنع والحرمان- أبصرت هذه الآية العظيمة التي تعيد تشكيل العقل وصياغة القلب للتوجه إلى الله وحده في جلب نفع أو دفع ضر، وقطْع تعلّق القلب بالمخلوقين طمعاً في تحقيق ما أحبه وأشتهيه، أو هرباً مما أخافه وأكرهه..

وفي الآية عدة فوائد:

١- إذا فُتح باب الرحمة على العبد فلا خوف ولا قلق ولا حزن ولو أغلقت أبواب الدنيا جميعاً، وإذا أُغلق باب الرحمة في وجه العبد فلا أنس ولا أمان ولو فتحت له أبواب الدنيا جميعاً.

٢- ودِّعْ اليأس، واهجُر القنوط، وابتعد عن القلق؛ فلا مكان للهواجس النفسية والوساوس الشيطانية؛ فربك بيده ملكوت كل شيء ويملك وحده مفاتيح كل شيء: (مفاتيح العلم، والرزق، والهداية)، وليس هناك قوة في الكون قادرة على حرمانك مما كتبه الله لك.

٣- إنها آية عظيمة تلخّص علاقتك باسم (الفتاح) عز وجل وتدعوك إلى:

- إدمان طرق بابه والخضوع على أعتابه.
- اليقين بأنه المتفرد بالعطاء والمنع، فلا تذِلّ نفسك لأيّ أحد من البشر.
- الاطمئنان إلى أقداره والرضا بأفعاله فهي مرتبطة بحكمة بالغة وعزّة قاهرة.
- البحث عن مواطن رحمته حتى في أحلك الأوقات وأصعب اللحظات.

***

فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر: ٦).

لو استحضر كل واحد منا حقيقة المعركة مع الشيطان، وتعرّف على وسائله في الإضلال والإغواء، والثغرات التي ينفذ منها إلى القلب؛ لاسترحنا من وساوسه وهمزاته وشروره، ولكنّ آفة الإنسان أنه ينسى!

من أعظم أسلحة الشيطان في هذه المعركة:

١-سلاح (التزيين).. تزيين المنكرات والموبقات في نظر صاحبها؛ فلا يشعر بوخزة في الضمير أو لحظة ندم وهو يقترفها لأنه ألفها وتعود عليها، ويبقى تبرير المعصية هو الخطوة التي تسبق التزيين.

٢-سلاح (اليأس) من رحمة الله بدعوى كثرة السيئات أو تعاقب الغفلات.

٣-سلاح (الوهم).. يوهمك أنك غير قادر على تغيير نفسك والتخلص من سلبياتك، والتدافع مع عيوبك، ويوهمك بأنه من الأفضل أن تظل حبيس منطقة الأمان الوهمية حتى لا تتكبد عناء التغيير ومخاضه، ويوهمك في لحظات الضراء بأن الله تعالى تخلّى عنك وتركك لمصيرك المظلم تجتر الحسرة والخذلان! ويوهمك بسعة مغفرة الله قبل المعصية ليوقعك فيها، ثم يوهمك بأن الله شديد العقاب لن يقبل توبتك وأنك هالك لا محالة؛ ليقنّطك من رحمته ويطردك عن أبواب التوبة!
ولك أن تتأمل في تهديد الشيطان بمحاصرتك من كل الجهات من أجل إضلالك وإغوائك، وذلك في قوله تعالى: ﴿قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمانِهِمْ وَعَنْ شَمائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٦-١٧).

إنّه حصار شيطاني خانق يُزيّن القبيح، ويُهيج أعاصير الشهوات، ويُثير رياح الغفلة، ويُنسي النعم، ويُلهي بطول الأمل، ويُغري بسعة رحمة الله مع استمراء القبائح والمنكرات، ويصرف القلب عن الشكر، ويُصعّب عليه الصبر، ويقطع حبال الأمل والتفاؤل.

حصار يدعوك للاحتماء بحصن التوبة مهما كثرت السهام، أو تعددت الجراحات، أو غلبك اليأس؛ فعبر بوابة التوبة تنال رعاية مولاك وإلا سقطت في بئر الهلاك.

***

آهات وحسرات

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة فاطر).

في مشاهد القيامة عبرة وعظة لكل الشاردين عن طريق الحق؛ علّهم يعودوا إلى ربهم قبل فوات الآوان.

وفي هذا المشهد الرهيب نلمح:

آهات وزفرات.. صرخات وحسرات.. ندم وبكاء.. ألم وعناء.. أمنيات ورغبات.. خسران وخذلان..حرمان وهوان

وإني لأتساءل: هل تستحق الحياة الدنيا بكنوزها وسلطانها، وأموالها وثرواتها الوقوف في هذا الموطن العصيب ومعاينة المصير المظلم؟ هل تستحق شهواتها وملذاتها مهما كثرت أن يضحى المرء من أجلها بمستقبله الأخروي؟

هل يجد المؤمنون في هذه الآيات العزاء والسلوى وهم يشاهدون تمكّن المجرمين والظالمين وتمتعهم بالخيرات والرخاء والنعيم، مع ما يلاقونه هم من ضعف واضطهاد وتشريد؟!

ألا ما أشد حماقة الظالمين إذ يُعرضون عن النُذر الإلهية والتحذيرات الربانية حتى يروا العذب الأليم والهول الشديد.

وإنّ هذا الغباء يستمر حتى في عرصات القيامة عند معاينة أقسى العذاب عندما يبحثون عن أهل الحق – وهم أهل الشر في نظرهم- في وسط النيران: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ * إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ (سورة ص: ٦٢- ٦٤).

وأنقل لكم ما كتبه الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في تعليقه على هذا المشهد الفريد:

(كأنّ غرور الجبارين وسفاهتهم من اللوازم التي لا تنفك عن ذويها أبداً، لقد كانوا في الدنيا أغبياء عندما صادروا العقائد وحاربوا الأحرار وضيّقوا عليهم الخناق، وإنهم لكذلك في الدار الآخرة لم تفارقهم هذه الغباوة ولم يستحيوا أن يتساءلوا: (مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ)؟، كيف ترونهم وأين؟ لقد ارتفع كتابهم في عليين على حين هويتم أنتم في أسفل سافلين..

لقد حسبتم أنفسكم عظماء لأنكم ملكتم وحكمتم، وحسبتم أنفسكم أقوياء لأنكم قتلتم وسجنتم، وظللتم في غوايتكم سادرين فما رجعتم إلى الله بتوبة، ولا أخلصتم لعباده في عمل، وطالما استهزأتم بمن دعا إلى الله وعَمِلَ بشرعه واستمسك بحكمه.. فاليوم بعد ما أعزّهم

الله وأذلّكم، تتساءلون: (مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ)[29].

***

29 من مقالات الشيخ محمد الغزالي، ج٤ /١٤٢.

فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ

﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (سورة الصافات).

١- (فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ).. المؤمنُ دائمًا في رحمةٍ من الله تبارك وتعالى، لا يتخلَّى عنه أبداً، وإن مَسَّه ببعض البلاء ليؤدِّبه بلُطْف، ويردَّه إلى بابه وقد صقلته المحن، ورفعته الخطوب.

٢- (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ).. رصيدك من الطاعات في أوقات الرخاء هو سبب الخلاص من الابتلاءات والكربات، والتسبيح – وهو تنزيه الرب عن كل نقص، وعن كل عيب – هو ما يحتاج العبد لتذكره خاصة عند حلول المصائب؛ ليعصمه من وساوس الشيطان التي تغريه بسوء الظن بخالقه والعياذ بالله.

٣- في لحظات الكرب والشدة يبقى إخلاص العبودية لله، والبراءة من كل شيء، حتى من نفسك التي بين جنبيك، والاستسلام لله عز وجل هو السبيل إلى شاطىء النجاة وسط ظلمات الهمّ والضيق والحزن.

***

لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩).

كتاب غزير البركات، منبع الخيرات، يحميك من الشرور والضلالات، وينبّهك إذا وقعت في شباك الغفلات، ويمنحك النور الذي يبدد ظلمات المتاهات، ويفتح لك أبواب الأمل واليقين عند اشتداد الكربات وفي أحلك الأوقات، ويحفزك على تذوق حلاوة الأنس بالله عز وجل في أوقات الخلوات.. كم نغبن أنفسنا حين نقتصر في تعاملنا مع هذا الكتاب العظيم على كثرة الختمات وتجميع الحسنات!

واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤).

• ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، فمن تدَبَّرَ القُرآنَ دَلَّهُ على كُلِّ خَيرٍ، وحَذَّرَهُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ، وأبانَ لهُ الحلالَ والحرَامِ، وعَرَّفَهُ بأسمَاءِ رَبِّهِ الحُسْنَى، وصِفَاتِهِ العُلَى، وشَوَّقَهُ إلى ثَوابِهِ العَظِيمِ، وخَوَّفَهُ من عِقَابِهِ الأليمِ.

•﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾، فيقْرؤُونَهُ قِراءَةً مُرَتَّلَةً، مُتَأَنِّيةً مُتَرَسِّلَةً، بحضُورِ قَلبٍ، وإعمَالِ عَقلٍ.. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق : ٣٧).

•فالآيَةُ مِنهُ كالتَّمرةِ، كُلَّمَا مَضغْتَها أكْثرْ ازدَادَتْ حَلاوتُها.. وكُلَّمَا كَشفْتَ مِنهَا وَجْهًا، بانَ لكَ مِنْ تَحتِهِ وُجوهٌ كَثيرةٌ.

•فَيتَدَارَسُونَ آيَاتِهِ، ويَسْتَلْهِمُونَ هِدَايَاتِهِ، ويَسْتَشْفُونَ بعِلاجَاتِهِ، ويَتخَلَّقُون بإرشَاداتِهِ وتَوجِيهَاتِهِ، فَيُحَقِقوا مُرادِ اللهِ، ويَنَالُونَ مَرْضَاتِهِ)[30].

***

30 مقال أفلا يتدبرون القرآن - الشيخ عبد الله الطوالة– شبكة الألوكة.

التوبة.. الملاذ الآمن

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة الزمر: ٥٣).

ما أقسى أن تحرمك كثرةُ ذنوبك من توبة تطهّر بها قلبك من دنس عيوبك! فتعجز عن تحطيم قيودك، وتيأس من كثرة نقضك لوعودك؛ وعندها تسمع نداء مولاك البر الرحيم يدعوك للتوبة ويغريك بالمغفرة ويغمرك بالرحمة، فتهبّ عليك نسمات الأمل لتبدد ظلمات الوحشة واليأس؛ فتعود إليك الحياة من جديد، وتهبّ على قلبك رياح الأنس والسكينة والطمأنينة بعد طول غياب وحرمان..

وفي الآية عدة فوائد:

١- (يَا عِبَادِيَ).. وكلما أثقلتني الذنوب والسيئات، دعتني عبوديتي إلى الفرار إلى الله عبر بوابة الندم والتوبة والإنابة.

٢- (أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ).. يا من لوّث نفسه بالموبقات، ووضعها في مستنقع الشهوات، وحفّها بالمعاصي والملذات، فأحس بالذنوب والآثام وكأنها جبل يُطبق على صدره، فوسوس له الشيطان بأنه لا أمل في العودة، فاستبد به اليأس، وأحاطت به الهموم، ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ (القصص: ٣١).

٣- (لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّـهِ).. حطِّم قيودك، وانسف يأسك، وانتصر على شيطانك، وجدِّد آمالك، وبدِّد أحزانك، واغترف من ينابيع الرحمة الإلهية ما يمنحك صفاء الروح ونقاء القلب.

٤- (إِنَّ اللَّـهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا).. مهما كانت بشاعتها وشناعتها.. مهما أوهمك الشيطان بأن بينك وبين التوبة أمداً بعيداً، مهما تكررت الهفوات وتتابعت الزلات، مهما قسى قلبك وجفّت روحك، فالباب مفتوح، والكرم الرباني يغدو ويروح، والتوبة تشفي الجروح.

***

حَقَّ قَدْرِهِ

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر: ٦٧).

أواه يا قلب...

لو عرفت مقامه سبحانه وتعالى..

لو اغترف قلبك من معين أسمائه وصفاته.. لو شاهدت آلائه ونعمه في كل لحظات حياتك..

لو أيقنت بأنه عز وجل الغني الحميد، وكل من حولك فقراء إليه وإلى خزائن رحمته؛ لأفنيت عمرك في طلب مرضاته، ولرضيت بأقداره، ولصبرت على بلائه، ولوجدت لذة أنسه ومناجاته، ولسارعت بعد معصيته إلى استرضائه، ولشكرته علي نعمه وآلائه، ولوقفت بالمرصاد لشيطانك، ولجاهدت نفسك وأهواءك.

لو عرفته حق المعرفة.. لم يبق في قلبك مثقال ذرة من رياء أو طلب ثناء البشر ومدحهم أو الرغبة في نيل رضاهم.

إذنّ المعادلة بسيطة: (اعرف قدر الله.. تتذوق حلاوة الإخلاص له)، ولكن دون ذلك مجاهدة لحظوظ النفس الأمّارة التي تهوى المدح والثناء، ومراغمة لوساوس الشيطان الذي لا يفتر عن الإغواء.

***

فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ

﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠).

إنّ الابتلاءات التي تواجه العبد في الدنيا منها ما يكون نتيجة سنّة الله تعالى في أخذ عباده بمزيج من الشدة والرخاء ليختبر عبوديتهم له بين الصبر والشكر، ومنها ما يكون عقوبة نتيجة اقتراف الذنوب والآثام علّهم يعودوا إلى ربهم تائبين نادمين عازمين على الصلح..

وفي الآية عدة فوائد:

١-المؤمن دائم المحاسبة لنفسه، يتفقدها بين الحين والآخر، فإذا ابتُلي بشدة أو مصيبة بحث عن معصية ارتكبها أو تقصير بدر منه، فيقوده ذلك إلى محراب التوبة والاستغفار، وكما قال أحد التابعين: (إني لأرى أثر المعصية في خُلق زوجتي ودابتي).

٢-القلوب المطموسة تقترف المعصية تلو المعصية، فتُعاقب بالحرمان من الطاعة وتعسير أمور حياتها، ولكن الغافل لا يعيّ، والمبنّج لا يحس، والمخمور بسكرات اللذات لا يدري.

٣- ما أعظم شؤم المعصية على المجتمع بأسره وخاصة- إذا عمّت الفواحش وانتشرت الموبقات، وخَفَت صوت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلا صوت دعاة الفجور والرذيلة: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة الروم: ٤١)، ولكم عبرة وعظة في انتشار فيروس كورونا وما حققه من أضرار، وفي ذلك دعوة للمراجعة وتصحيح المسار.

٤- عن سيدنا عليّ رضي الله عنه قال: (هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن، فالله أكرم من أن يثنّى عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا عنه فالله أحلم من أن يعود فيه بعد عفوه)[31].

***

31 البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ج ٥/ ٢٢٠ – الإمام ابن عجيبة الحسني.

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الزخرف: ٥١).

اعتمد فرعون في خداعه للجماهير واستخفافهم على الرؤية البصرية التي تجسّد القيم المادية والمتاع الأرضي الذي يبهر الأبصار ويخطف بريقها (أَفَلا تُبْصِرُونَ)، ولم يقل (أفلا تعقلون) لأنهم لو تعقّلوا وتفكّروا لأدركوا حقيقة فرعون الهزيلة، وانتفاشه المزيف، واغتراره بملك زائل ليس له أي فضل فيه، وأنه دأب على استغلالهم مالياً والتسلط عليهم سياسياً بلا تخويل منهم ولا تفويض من عند الله.

ولقد عرض القرآن علينا صورة من صور استخفاف فرعون بالجماهير عندما هتف بهم في غرور واستعلاء: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (القصص: ٣٨).

وما أجمل تعقيب الشيخ محمد عياش الكبيسي على هذه الآية:

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي...)

إنها (كلمة تهتز لها الرواسي، وتشيب لها النواصي، فهذا المخلوق الذي لا يستغني عن لقمة الخبز، وشربة الماء، ومعاودة بيت الخلاء في الصباح والمساء، يقف منتفشًا ومنتشيًا بين ملئه وحاشيته بعد أن غطّى عورته بثوب من صنع الفقراء والبؤساء، ليعلن أنه الإله الأوحد!

ثم يصدّقه الغوغاء من كل أعمى قلب، ومطموس بصيرة، يلهثون خلف فتاته وما تجود به لهم يده، ولو أعملوا عقولهم لعلموا أنه يتصدّق عليهم مما سرقه منهم، ومن ثروات بلادهم.

إنها صورة مكررة تعكس علاقة الحاكم بالمحكوم في المجتمعات المتخلفة التي يعشعش فيها الجهل، فينهض فيها الفساد والاستبداد، ويكثر فيها التزلف والنفاق)[32].

***

32 مجالس النور، ج ٣ /١٠٨٠.

نيران الشائعات

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات: ٦).

ما أكثر الذين ينساقون وراء الإشاعات والأراجيف، ويسارعون إلى تصديق كل ما تلقيه وسائل الإعلام المرئية والمسموعة دون تمييز بين الغثّ والسمين، والحسن والقبيح، وهذا ملاحظ جداً على صفحات الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، ألا فليتق الله هؤلاء الذين ينشرون الأخبار الكاذبة دون فرز وتمحيص، وليتذكروا أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب التي استودعهم الله عز وجل إيّاها.

أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة، وكلما روى الإنسان رواية، وكلما أصدر حكماً على شخص أو أمر أو حادثة: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٦).

وما أجمل تحذير النبي (ص) في عبارة موجزة بليغة: *كَفَى بالمَرْءِ كَذِبًا أنْ يُحَدِّثَ بكُلِّ ما سَمِعَ* (صحيح مسلم ٥).

***

زينة الإيمان

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (سورة الحجرات: ٧).

الإنسان تتجاذبه قوتان: قوة الإيمان وقوة الفسوق، ويظل متقلِّباً بين هذه وتلك، فإذا صدق توجهه إلى الله أمدّه بهدايته وأنار بصيرته، وصبغ قلبه بصبغة الإيمان، وطهّره من الشوائب والأكدار..

وفي الآية عدة فوائد:

١- (اللَّـهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ).. لم يُجبرك على الإيمان، ولكن جعلك تختاره عن حب واقتناع، بما أودع في الفطرة من محبته، وبثّ في الكون من الدلائل والآيات التي تدل على صحته.. فما بال الملحدين يخاصمون الفطرة السليمة ويتعامون عن الآيات الواضحة؟!

٢- (وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ).. إذا تجمّل القلب بزينة الإيمان أصبحت تصوراتك وأفكارك، وعباداتك ومعاملاتك، وطعامك وشرابك، وجوارحك ولسانك، وحركاتك وسكناتك؛ تجري وفق مراد الله تعالى منك، وتلك هي الثمار الحقيقية لشجرة الإيمان.

٣- (وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ).. في غياب زينة الإيمان، ينشط التزيين الشيطاني الذي يقلب الموازين ويزيّف الحقائق، ويجمّل القبيح، ويُحسِّن المنكر، ويُغري بإتّباع الباطل.

٤- (وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ).. إذا لم يجد قلبك نفوراً من المعصية، ووحشة من الذنب، وضيقاً عند المخالفة، وألماً عند البعد، وحزناً عند الجفاء، فراجع إيمانك!

٥- (أُولَـٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ).. يمتلكون القدرة على التمييز بين النافع والضار، فلا يغرّهم المظهر أو يخدعهم البريق، ولا تفتنهم الزينة، ولا يندفعون مع التيار، ولا يعترضون على الأقدار.

***

فن التعامل مع المحن

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (سورة الحديد).

إن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان التي لا يتم إيمان عبد حتى يؤمن بها كلها، وحقيقته أن يعلم المؤمن أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ الله لم يكن، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.. لذا جاءت هذه الآية لتقرر قاعدة هامة وهي أن كل شيء في هذه الحياة، خاضع لقضاء الله - تعالى - وقدره، وأن على المؤمن الصادق أن يكون شاكراً عند الرخاء، صابراً عند البلاء.

وفي هذه الآية عدة فوائد:

١- (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ).. وفى التعبير عن وقائع الأمور وأحداثها بأنها (مصيبة) إشارة إلى أن أكثر ما يشغل أفكار الناس هي المكاره، أما مواقع النعم والإحسان فقلّ أن يلتفت الناس إليها، وإن التفتوا إليها أضافوها إلى أنفسهم واعتبروها من كسب أيديهم إلا من رحم الله.

٢- (إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا).. كل شيء مسجّل في اللوح المحفوظ قبل خلق الأرض والأنفس؛ فلا تمزّق نفسي، ولا توتر عصبي، ولا حزن مهلك، وإنما برد اليقين، وقرة العين، وانشراح الصدر، والاطمئنان إلى رحمة الله وعدله.

٣- (لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ).. أفراح الدنيا وأحزانها محض ابتلاء وامتحان.. فلا تقودك السراء إلى الاختيال والفخر والإغترار، ولا تسوقك الضراء إلى الجزع والسخط والانهيار.

٤- العبد المؤمن لا يرى في المنع أو البلاء أو المصائب أو الأمراض شراً يتطير به ويجزع منه، بل هو صقل وتطهير وتنقية واختبار.

***

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الذاريات: ٥٠).

وكلما قرأت هذه الآية.. أسأل قلبي:

متى تفر من كيد الشيطان إلى حصن الرحمن؟

متى تفر من ذل المعصية إلى عز الطاعة؟

متى تفر من ظلمات الغفلة إلى أنوار اليقظة؟

متى تفر من هموم الدنيا إلى هموم الآخرة؟

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)..

(فر إلى الله بأحاسيسك وقلبك كلما ضعفت وانكسر مجدافك، وخابت أمانيك وضاق صدرك، وهرب أحبابك، وتعسر أمرك) (الشيخ عايض المطيري).

وأجمل من الفرار إلى الله في حال الضعف والضرّاء ـــ الفرار إليه في حال الرخاء والسرّاء؛ فَبِه يظهر صدق الإيمان بالله وصدق الافتقار واللجأ إليه.

***

أما آن الأوان للخشوع

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ١٦).

(ليس أحسن من مواعظ القرآن للنجاة من اللهو والغفلة، فقد تصل إلى سَمْع المرء آية أو آيات فتوافق منه إنصاتًا وتدبراً فترحل به من وهدته السحيقة إلى فضاء التوبة والطهر والفضيلة.

ولقد كانت هذه الآية المباركة سبباً في توبة الفضيل بن عياض رحمه الله، فقد كان الفضيل قاطعا للطريق، وكان سبب توبته: أنه عشق جارية فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تاليًا يتلو:﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، قال: فلما سمعها قال: بلى -يا رب- قد آن.

سمع منادي الحق- وهو يتسلق جدران المعصية- من غير ميعاد يأتيه فيه، ولا قصدٍ من مناديه وهو يقرأ آية من سورة الحديد؛ فلامست قلبه، واهتز كيانه، وأبصر فيها موعظة ربانية تقول له: (أما آن لك أن تغلق سجل البعد عن ربك، وتفتح سجل القرب إليه؟! لقد حان هذه الليلة أن تخط على صفحة قلبك بدموع الندامة سطورَ التوبة التي سيشرق منها زهد وعلم يملأ الدنيا نوراً واقتداءً)[33].

فأيها القلب الغارق في أوحال الشهوات والطين.. متى تعود لرب العالمين؟

متى تُمزّق حُجُب الغفلة؟.. متى تتخلص من أقفال القسوة؟

متى يهتز كيانك بالخشوع؟.. متى تنثر الدموع؟

***

33 هداهم القرآن، ص: ١٢٦ -١٢٩ بتصرف - الشيخ عبد الله العواضي.

فَإِنّكَ بِأَعْيُنِنا

﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ * فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (الطور).

أي طاقة روحية وقوة إيمانية يكتسبها المؤمن عندما يعلم أنه مشمولٌ بحماية الله عز وجل الكاملة ولطفه، محفوفٌ بعنايته ورحمته، ترعاه يد القدرة الإلهية وتحرسه وتحفظه وتراقب كل خطواته وصبره وتسبيحه وذكره وقيامه وعباداته!!

فيا صاحب الرسالة ويا حامل راية الحق.. إياك أن تضعف همّتك أو يفتر عزمك مهما تكاثرت العراقيل والمثبّطات (فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا).

***

لِيَحْزُنَ الّذِينَ آمَنُوا

﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المجادلة: ١٠).

في هذه الآية (إشارة إلى أن الشيطانَ لا يَقِفُ عن محاولة تكدير صفو المؤمن، وإزعاجه في كل حال؛ فتراه يذكّره بما يسوؤه، ويمنّيه بالأماني الباطلة التي تجلب له الشقاء، وتراه أيضاً يجلب عليه الذكرياتِ الأليمةَ والاحتمالاتِ السيئةَ، والخيالاتِ المثبطةَ عن العمل، فإذا استجاب الإنسان لذلك؛ فصار يستدعي تلك الخواطر، ويجّتر تلك المآسي، ويسترسل مع الاحتمالات الرديئة، والظنون السيئة - عاش في ألم، وضِيْق، وصار يأكل بعضه بعضاً، ويعذب نَفْسَه بنفسه، أما إذا قطع تلك الواردات، ودرأها عن نفسه ما استطاع، واشتغل بما يعنيه، ونظر إلى الجوانب المشرقة في الحياة، وفي سيرته، واستعاذ من الشيطان ووساوسه، كبرت نفسه، وعَلَتْ هِمَّتُه، وكثر نشاطه، وزاد إقباله، وانشرح صدره، وعظُم إنتاجه)[34].

***

34 ثلاثون مجلسًا في التدبر(المجموعة الخامسة)، ص: ٦١-٦٢– وهذا المجلس من إعداد الشيخ محمد إبراهيم الحمد.

يَهْدِ قَلْبَهُ

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن: ١١).

تأملت في هذه الآية فوجدت ثلاثة أمور:

١- أن كل ما يصيب الإنسان في هذه الحياة بإذن الله وتقديره، وكلّ شيء خاضع لإرادته وسلطانه، فما يتسلط أهل الباطل على أهل الحق إلا بإذن الله؛ لحكمة عظيمة علمها من علمها وجهلها من جهلها.

٢- المؤمن لا تهزمه المصائب ولا يجزع عند الشدائد، ولا يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا؛ لأنّه موقن بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

٣- إن الهدف من وراء هذه الامتحانات والاختبارات الصعبة، هو إيقاظ الناس وتربيتهم وإعدادهم لحمل رسالة الحق والتضحية في سبيلها.

***

يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ (سورة الطلاق).

هذه الآية العظيمة تحمل البشرى للمؤمن حتى يثبت فؤاده، ويستقيم قلبه، ويحرص على طاعة الله- تعالى- في كل أحواله، فإذا اتقى الله تعالى في كل أقواله وأفعاله وتصرفاته، جعل له - سبحانه - مخرجاً من هموم الدنيا وضوائقها ومتاعبها، ومن شدائد الموت وغمراته، ومن أهوال الآخرة وعذابها، ويزرقه الفوز بخير الدارين، من طرق لا تخطر له على بال، ولا ترِد له على خاطر.

وفي الآية عدة فوائد:

١- ما أعظم غراس شجرة التقوى في القلب! تفريج الهموم والكروب، والخروج من المصائب والخطوب، وثمرة الرزق الحسن الذي لم يكن في الحسبان، وتكفير الذنوب والثأر من الشيطان، وهل أنقذ يوسف عليه السلام من فتنة امرأة العزيز إلا احتماؤه بحصن التقوى، وهل فرّج الله كربه وأخرجه من السجن إلى المُلك إلا عبر بوابة التقوى:

﴿ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف ٩٠).

٢- (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّـهِ فَهُوَ حَسْبُهُ).. التوكل على الله والاعتماد عليه وحده راحة للبال، وهدوء للأعصاب، وطمأنينة للخاطر، وصيانة من المخاطر، وراحة من الأوهام، وحفظ من المكائد.

٣- (إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا).. كلّ شيء بيده، خاضع لمشيئته، مستجيب لإرادته، وما يريده سبحانه فهو واقع لا محالة، دون أن يعوّقه معوّق، أو يغيره أحد.. فلا تستعجل النتائج، ولا يحملنّك استبطاؤها على الشك والضجر، فكل شيء يأتي في أوانه المقدَّر.

***

ضعف المناعة الإيمانية

﴿سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ * لِلْكافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ﴾ (سورة المعارج).

إذا افتقد الإنسان نور الإيمان أو ضعفت قوته، فإنه يُصاب بالجزع عند مواجهة سهام البلاء، ويحبس نفسه في زنزانة الهم والضيق، لا يرى لهذا البلاء دافعاً، ولا يتوقع من وراء هذا الضيق فرجاً، فإنه قد خُلّي بينه وبين مصيبته، يتجرع غُصصها، ويمضغ جمرها، ويبيت على أشواكها، دون أن يجد للصبر طريقاً، أو يرى للعزاء وجهاً، أما في حال العافية والرخاء وسعة الرزق وفيض المال فيستبد به الحرص، ويتسلط عليه الشُحّ، ويقوده الطمع إلى العُجْب والاغترار وحرمان المحتاجين.

والصلاة الخاشعة هي وقود الإيمان، تمد العبد بطاقة إيجابية تعينه على مقاومة نوازع الضعف البشري، فلا يسقط في بئر البخل والحرص في السراء، ولا يتهاوى في دركات الجزع واليأس في الضراء!

***

مثابرة وإصرار في مواجهة العناد والاستكبار

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ (سورة نوح).

١- (قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً).. همة عالية وعزيمة قوية لا تعرف الفتور أو الكسل رغبة في مرضاة الله وهداية الناس وإنقاذهم من النار! فما بال أكثر الناس متثاقلين عن نصح أهليهم وأقربائهم فضلاً عن عامة الناس.

٢- (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ).. لا يطيق أهل الباطل سماع دعوة الحق ولو كانت سببًا في نجاتهم وفلاحهم، فإن القلوب التي تستولي عليها الأهواء الجامحة والشهوات الهائجة تفقد القدرة على الإبصار.

٣- (وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا).. فتش في قلبك عن بذرة العُجْب والاعتداد بالنفس فهي مفتاح الشرور وأقصر الطرق للسقوط في مستنقع الاستكبار والعناد.

***

هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ

﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ﴾ (سورة الحاقة).

هل تذكر تلك اللحظة التي نلت فيه شهادة التخرج أو شهادة إجازة قرآنية أو شهادة قبول بحث أو شهادة إتمام دورة تدريبية بنجاح، وقمت بمشاركتها على صفحتك على الفيس بوك ليشاركك زملائك وأقرانك فرحتك وسعادتك؟!

فما بالك بالفرحة الكبرى والسعادة المثلى والفوز الكبير يوم توزيع الجوائز يوم القيامة، والسرور يغمرك، والرضا يشملك، والسكينة تظلك.

ويبقى تذكر تلك اللحظات الرائعة وما فيها من صنوف النعيم وألوان المسرات وحفاوة الاستقبال والتكريم هي الحافز الذي يُعين المؤمن على الصبر والمصابرة والتحمل، ويمنحه إرادة التحدي والإصرار على الثبات على طريق الحق مهما لاقى من متاعب ومشاق.

إنّ غمسة واحدة في الجنة تُنسيك كل البؤس والهم والشقاء والحزن الذي عشته في الحياة الدنيا.. فما بالك بالخلود الأبدي؟! *ويُؤْتَى بأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا في الدُّنْيا مِن أهْلِ الجَنَّةِ، فيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجَنَّةِ، فيُقالُ له: يا ابْنَ آدَمَ، هلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هلْ مَرَّ بكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيَقولُ: لا واللَّهِ يا رَبِّ، ما مَرَّ بي بُؤْسٌ قَطُّ، ولا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ* (صحيح مسلم: ٢٨٠٧).

فيا قرة عين المؤمن بهذه اللحظات! وما أشأم المرء الذي يضحي بهذا النعيم المقيم من أجل شهوة جامحة أو نزوة عارضة!

***

لا تستصغر معروفاً ولا تحقّر سيئة

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ (النبأ: ٢٩).

واعجباه لمن يعلم أن الله قد أحصى عليه كل أعماله وسكناته بكل دقّة، فلم يغادر كتاب الأعمال صغيرة ولا كبيرةً إلا أحصاها، ثم هو يصرّ على المعاصي والعناد.. ألا ما أسوأ الغفلة عندما ترين على القلب فلا تجعل للنور إليه سبيلا.

ويحك أيها الغافل! أما علمت أن الظالمين يوم القيامة يشتكون من دقة الإحصاء: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٩).. أما قرع سمعك قول ربك وهو يصف دقة الميزان يوم القيامة: ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: ٧ ــ ٨).. فإيّاك أن تستصغر عمل الخير مهما تضاءّل في عينك، واحذر من الاستهانة بصغائر الذنوب ومحقراتها.

***

اعمل لدنياك بقدر بقائك فيها

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ (النازعات: ٤٦).

أهذه هي الحياة الدنيا التي يتصارع الناس من أجلها، ويبغي بعضهم على بعض في سبيل شهوة فانية أو لذة عابرة؟!

أهذه هي الحياة الدنيا التي يضحي أكثر الناس في سبيل زينتها ومتاعها المحدود بالآخرة دار القرار والنعيم والخلود؟!

أهذه هي الحياة الدنيا التي حذرنا الله تعالى من أن تكون منتهى آمالنا وغاية طموحاتنا وأكبر همومنا؟!

أهذه هي الحياة الدنيا التي نفعل فيها كل شيء إلا ما يقربنا من الملك عز وجل، ويحمينا من شرور الشيطان وشر مكائده وإغوائه؟!
تباً للغفلة التي أعمت القلوب والأبصار عن الاستعداد للموت قبل حلوله، والتجهز للقبر قبل نزوله!!

يا ليتنا نفهم الوصية النبوية: *كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل* (رواه البخاري: ٦٤١٦)، والتي تنسف الأمل الفاسد والرجاء الكاذب في التعلق بمتاع الدنيا والانكباب على شهواتها.

***

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (الأعلى: ١٤).

بين تزكية (العقل) وتزكية (القلب) علاقة وطيدة، فالعقل يبحث ويفكر في سر وجوده وغاية خلقه ومعالم المنهج الذي يعيش عليه والمصير المنتظر بعد الموت، والقلب يوظّف ما فقهه العقل في الارتقاء في مدارج التزكية ومعارج التقوى، ويجاهد القلب في سبيل ذلك شهوات مزيّنة، وهوى متّبع، وشيطان لحوح، ونفس أمّارة بالسوء اجتمعوا كلهم على هدف واحد: هو صرف المرء عن الغاية التي خُلق من أجلها؛ عبر تجهيز جيوش هائلة من الرغبات والملذات، والمطامع والأهواء تقود من يستسلم أمامها إلى مستنقع الغفلة والنسيان.

شتان شتان بين من زكّى نفسه وطهّرها فخلّصها من تراب الأرض، وأطلق روحه من أسر المادة، فحلّقت به في عالم الحق والنور، وبين من أخفى نفسه في ظلمات الغفلة والمعصية وحبسها داخل زنزانة الشهوات والرغبات.. ما أبعد الفرق والمآل بينهما في الدنيا والآخرة.. فأي الفريقين تختار؟!

***

التنافس الحقيقي

﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين: ٢٦).

تأمّلت في دنيا الناس.. فوجدت أكثرهم غايته الزينة والملذات، والمنصب والجاه، واللهو واللعب، أقبلت النفوس على الدنيا تتنافس في الاستكثار من متاعها وزخرفها، وكلما أُلقي إليها ما تشتهيه، اشتد جوعها، وازداد نهمها، فلا تشبع أبداً.. فهل من دواء ملطف لهذا السّعار؟ ألا تفكّر هذه النفوس الشاردة في نعيم الجنان دار القرار؟! هل يملك الغافلون عندما يقفون- بين يديّ الملك - يوم القيامة أي حجج أو أعذار؟.. تباً للغفلة وطول الأمل والتسويف والاغترار!!

(فيا من يرجو نعيم الجنة ومنازلها العالية! وهو ما زال يخادن الكسل، ويتأبّط التسويف، ويغط بين أحضان الفتور، راجع عقلك؛ لعلك أن تستفيق من سكرة الأمل الخادع؛ حتى تركب صهوة التشمير والجد للعمل لذلك النعيم المنتظر: ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]) [35].

***

35 أنوار من الذكر الحكيم، ص ٩٢.

خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ

عشت فترة طويلة من حياتي في كهف الآلام والأحزان، فهمت من خلالها معنى قوله عز وجل: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلد:٤)، وأدركت أن الإنسان كُتب عليه أن يعيش في هذه الدنيا حياة الكد والتعب والعناء والمشقة؛ فحرصت ألا يشغلني تعب الدنيا عن وظيفة العبودية حتى لا تمتد المعاناة إلى الآخرة، وما زلت أحاول.. فأنجح حينًا، وأفشل أخرى.. المهم ألا تشغلني متاعب الدنيا ومشقاتها عن شدائد الآخرة وأهوالها.. وشتان بينهما!

لذلك ينبغي للمؤمن أن يُكثر من الأعمال الصالحة في دنياه، حتى يلقى الله وعنده من الحسنات، ما يضع حداً نهائياً لمتاعبه المعتادة في حياته الأولى، وبذلك يستأنف حياة ثانية كلها نعيم مقيم، ورضوان من ربه الكريم.

• (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ).. (من العجيب.. أنك تجد كل إنسان يعاني ويكابد في أي طريق يسلكه؛ حتى ولو كان يسلك طريق هواه.. بل لو جلس لا يسلك طريقاً لأشغله هاجسه وتفكيره، ولربما عانى من ذلك أشد الكبد والتعب، فإذا لم يكن من المكابدة بُد، فمن العجز ألا نكابد في طريق الجنة، ومن العجز أن نترك المعالي؛ لأنها تحتاج مكابدة وتعب)[36].

• (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ).. إذا كانت مكابدة المرء للمشاق والمتاعب هي الضريبة التي يدفعها لتحقيق النجاح الدنيوي..

فهل يظن أن الوصول إلى جنة العبودية والارتقاء فيها والفوز بالنعيم الآخروي ـــ ممكن من غير جهاد متواصل وصبر دؤوب، يقاوم من خلالها ضعفه الفطري ويتغلب على آلامه النفسية والجسدية؟!

حتى لحظات أنس القلب وطمأنينة النفس وسكينة الروح وارتقاء الفكر لا بد أن يسبقها عناء ومشقة، وصبر ومجاهدة، ومحاربة للفتور والكسل، ألم يقل أحد الصالحين: (كَابَدْتُ الصَّلاةَ عِشْرِينَ سَنَةً، وَتَنَعَّمْتُ بِهَا عِشْرِينَ سَنَةً).

• (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ).. إن المرء وهو في رحلة كدحه وبذل جهده ومكابدة مشقته في هذه الحياة الدنيا من أجل تحصيل رغباته ومطالبه طمعاً في التخلص من آلام مشاعر الحرمان، لينسى أن الحرمان الحقيقي هو أن يستمر هذا التعب وتلك المعاناة حين يلقى الله تعالى في الآخرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ (الغاشية: ٢-٤)، ليكتشف أن كدحه من أجل دنيا زائلة أو شهوة فانية ذهب هباءً منثوراً!

***

36 قبسات من كلام الله ص ٢٨٦ - الشيخ عبد الرحمن العنزي.

الاعتصام بالله.. حصن النجاة (من وحي المعوذتين)

الإنسان مَخْلوق ضعيف، مفتَقِر إلى الله سبحانه في كلِّ أحواله، فهو محاط بشرور متنوعة تتربص به لتصرفه عن الصراط المستقيم: من شيطان ماكر خبيث لا يتوانى عن خداعه وتضّليله، وشهوات مزينة تغرّه ببريقها وجاذبيتها، وفتن مضّللة وأهواء فاسدة تعميه عن رؤية الحق، وتتناوشه سهام كيد الأعداء، ومكر الحاسدين، لذا لا بديل للمرء إذا أراد النجاة من كل هذه الأخطار إلا بالاعتصام بخالقه، والعياذ بكنفه، واللياذ بحماه..

وفي سورتيّ (الفلق والناس) فوائد كثيرة لا تَّحصى أكتفي منها بخمس فوائد:

١- ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (الفلق: ١).. ما أجمل اضافة الفلق إلى الرب تعالى (وأصله شق الشيء عن الشيء، وفصل بعضه عن بعض)، ففيها النور بعد الظلمة، والسَّعة بعد الضيق، والفتق بعد الرَّتْق، واليسر بعد العسر، والفرج بعد الشدة، فتفاءل وأحسن الظن بربك.

٢- ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ (الفلق: ٣).. وفى وحشة الظلام والسكون والوحدة- تطرق الإنسان همومه ووساوسه، وتتوارد عليه آلامه وأشجانه، فيبيت مؤرقاً يئن تحت وطأة هذه الهموم، وتلك الوساوس إلا أن يعتصم بربه ويلجأ إلى حماه؛ فيجد الأنس والسكينة وراحة البال.

٣- ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ (النَّاس: ٤).. غفلتك عن سلاحك، وإهمالك لعدّتك يجعلك عرضةً لسهامه المسمومة، فإذا لبست درع التقوى، واعتصمت بحصن التوكل رجع واختفى واندحر، وهذا هو سر وصفه بالخناس، فإيّاك والغفلة؛ فإنها لحظة الشيطان المناسبة للهجوم والانقضاض.

٤- ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ (النَّاس: ٥).. يزيّن القبيح ويجمّل المنكر، ويُخفي الباطل تحت طلاء الحق، والكذب في قشور من الصدق، والضلال خلف ستار الهداية، فهو لا يملك إلا الحيلة والمكر والخداع والتظاهر وإخفاء الحقيقة.

٥- ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (النَّاس: ٦).. (ما أكثر شياطين الإنس الذين يبثون في القلوب الشُبَه والوساوس والأفكار السيئة عبر وسائل شتى؛ حتى يصدّوا الناس عن اطمئنان الطريق المستقيم ويقينه ونوره، وبعض أولئك الشياطين قد يبدو في زي ناصح، أو باحث عن الحقيقية، أو غيور على الناس، ولكن تلك الحروف التي يطلقها إلى الناس سهام مسمومة تقتل أو تجرح، فجاءت الاستعاذة درعاً حصينة تدفع تلك السهام الفكرية المنحرفة)[37].

***

37 أنوار من الذكر الحكيم، ص: ١٣٦.

صدر للمؤلف

١– متاع الغرور– دار طيبة حلوان(٢٠١٠)، وصدرت منه طبعة ثالثة (٢٠١٣).

٢– رمضان.. واهاً لريح الجنة- دار طيبة حلوان (٢٠١٠).

٣– قلب موصول بالله- دار طيبة حلوان (٢٠١١)، وصدر منه أربع طبعات.

٤– وربك فكبر (آية الكرسي سياحة في رحاب الكمال والجلال)- دار طيبة حلوان، (٢٠١٢)- بتقديم الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي رحمه الله.

٥– هكذا علمني رمضان- دار طيبة حلوان (٢٠١٣).

٦– علمتني المحن– دار البشير (٢٠١٧).

٧– جنة الإيمان– دار اللؤلؤة (٢٠٢٢) بتقديم د. محمد علي يوسف.

٨– من هدايات جزء عم -دار البشير (٢٠٢٢) قدم له الأستاذ الدكتور أحمد الشرقاوي.

٩– من هدايات جزء تبارك – دار البشير (٢٠٢٢).

١٠– شارك ببحثين ضمن موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم بعنوان: (الحياة في القرآن)، و(الخوف في القرآن)، والموسوعة صدرت في ٣٦ مجلد مؤخراً.

***

جدول المحتويات

fzkr_blkoran 1